دراسة أسلوبية في سورة (الحِجر)

إعداد
معمر زكي علي موسى

المشرف
الدكتور إبراهيم خليل

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

كانون ثاني، ٢٠١٠م

ا لإ هـد ا ء . . .

إلى أعزِّ النـاس إلى قلبي...

أ مــي . . .

أ بـــي . . .

إ خـو تـــي . . .

وإلى كل من أحبَّ لغة القرآن الكريم...

أهدي هذا العمل

م.م

الزرقاء ـ ٢٠٠٩م

شكر وتقدير

أتوجه بجميل الشكر ووافر التقدير إلى الدكتور الفاضل إبراهيم خليل لإشرافه على هذه الرسالة، كما أشكر الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة المناقشة: الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين، والأستاذ الدكتور شكري الماضي، والدكتور عودة أبو عودة، فلهم جميعاً خالص الشكر والتقدير.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى أخي أبي الأمين علاء الدين؛ إذ لم يضن عليَّ بمكتبته العامرة، فجزاه الله خيرا.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

قرار لجنة المناقشة...ب
الإهداء...ج
شكر وتقدير...د
فهرس المحتويات...هـ
الملخص باللغة العربية...ح
المقدمة...١
الفصل الأول: المستوى الصوتي...٣
أولا: أهمية الدراسة الصوتية...٤
ثانيا: ملامح الأصوات المفردة...٧
١. الجهر...٨
٢. الهمس...١٠
٣. التفخيم...١٣
٤. التفشي...١٦
٥. أصوات المد واللين...١٧
ثالثا: إيقاع الوحدات اللغوية المتكاملة...٢٠
رابعا: ظاهرة محاكاة الأصوات (الأنوماتوبيا)...٢١
خامسا: المقاطع الصوتية...٢٣
سادسا: الفواصل القرآنية...٣٢
١. التوازي...٣٦
٢. التوازن...٣٨
٣. التطريف...٣٩
٤. الترسل...٤٢
الفصل الثاني: المستوى الدلالي للألفاظ...٤٣
أولا: تكامل المستوى الصوتي مع المستوى الدلالي...٤٤
ثانيا: من سمات الألفاظ في السورة وميزاتها...٤٥
ثالثا: من العلاقات الترابطية بين الألفاظ...٥٣

أولا: الترادف..٥٣
ثانيا: المشترك اللفظي...٦٢
ثالثا: التضاد والمقابلة...٦٦
الفصل الثالث: المستوى الصرفي والنحوي...٧١
توطئة...٧٢
المستوى الصرفي..٧٣
أولا: بنية الأسماء..٧٣
١. التنكير..٧٣
٢. التعريف...٧٧
أ. الضمير...٧٧
ب. العلم...٨١
أولا: الاسم الظاهر..٨١
ثانيا: اللقب...٨٧
ج. اسم الإشارة..٨٧
د. الاسم الموصول...٨٩
هـ. المعرّف بـ(ال)..٩٠
و. التعريف بالإضافة...٩١
٣. المشتقات...٩٣
أ. اسم الفاعل..٩٣
ب. اسم المفعول...٩٥
ثانيا: بنية الأفعال..٩٧
١. الصيغ الصرفية البسيطة(المفردة)...٩٧
أ. فَعَلَ...٩٧
ب. فَعِلَ..٩٩
ج. أَفعَلَ...٩٩
د. فَعَّلَ..١٠٠
هـ. افتَعَلَ...١٠١
و. المبني للمجهول...١٠١
٢. الصيغ الصرفية المركبة..١٠٣

الصورة الأولى: قد + الفعل الماضي.. ١٠٤
الصورة الثانية: قد + الفعل المضارع.. ١٠٥
الصورة الثالثة: كان + الفعل المضارع.. ١٠٥
الصورة الرابعة: ظل + الفعل المضارع.. ١٠٧
المستوى النحوي (التركيبي).. ١٠٨
أولا: اختيارات نحوية خاصة بسورة (الحِجر).. ١٠٨
١. قوله Y: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢})........................ ١٠٨
٢. قوله Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤})........................ ١١٠
٣. قوله Y: (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧})........................ ١١٠
ثانيا: التقديم والتأخير.. ١١١
ثالثا: الحذف.. ١١٤
رابعا: التأكيد.. ١١٨
الفصل الرابع: التصوير الفني.. ١٢٢
أولا: التعريف بالصورة الفنية.. ١٢٣
ثانيا: التصوير الفني في سورة (الحِجر).. ١٢٦
١. التصوير بالتشبيه.. ١٢٧
٢. التصوير بالاستعارة.. ١٢٨
٣. التصوير بالكناية.. ١٣١
٤. التصوير بالحوار.. ١٣٣
٥. التخييل الحسي.. ١٣٤
٦. الصور البصرية(الحسية).. ١٣٤
٧. التصوير في مشاهد القيامة.. ١٣٥
ثالثا: التناسق الفني في السورة.. ١٣٧
١. تناسق اسم السورة مع مضمونها.. ١٣٧
٢. تناسق عقد المعاني في السورة.. ١٤٠
الخاتمة.. ١٥١
المصادر والمراجع.. ١٥٢
الملخص باللغة الإنجليزية.. ١٦١

دراسة أسلوبية في سورة (الحِجر)

إعداد

معمر زكي علي موسى

المشرف

الدكتور إبراهيم خليل

الملخَّص.

ينظر هذا البحث في سورة (الحِجر) على وَفق الدراسة الأسلوبية التي تتخذ من مستويات الدرس اللساني الحديث المختلفة (الصوتية، والدلالية، والصرفية، والنحوية، والبلاغية) إضافة إلى الجوانب النفسية؛ وسيلة في تحليل النص الأدبي، والكشف عن بنيته العميقة كشفا عماده الدراسة التطبيقية للسورة، فقد تناول الباحث المستوى الصوتي، بما يتمثل فيه من دور بياني وإيحائي لجرس الأصوات مفردة ومركبة، وما تفصح عنه المقاطع الصوتية والفواصل القرآنية من معان ودلالات. ثم المستوى الدلالي، وما في ألفاظ السورة من مزايا وعلائق ترابطية بينها، كالترادف، والتضاد، والمشترك اللفظي. ثم المستوى الصرفي والنحوي، بمعالجة صيغ الأسماء الأكثر بروزا، نحو: النكرة والمعرفة، والمشتقات، وكذلك صيغ الأفعال البسيطة والمركبة. وما اختصت به السورة من تراكيب وظواهر نحوية، نحو: (ربَما يودُّ)، (إلا ولها)، (لوما)، والتقديم والتأخير، والحذف، والتأكيد. ثم المستوى البلاغي متمثلا بالتصوير الفني وتناسقه، فقد تضافر التصوير المعتمد على التشبيه، والاستعارة، والكناية، والحوار، والتخييل الحسي، والصور البصرية، والتصوير في مشاهد القيامة، في تشكيل الصورة الفنية في السورة تشكيلا كشف عن التناسق الفني والانسجام في بنائها العام. مختتما بذكر ما توصل إليه البحث من نتائج.

المقدمـــــــــــــــــة.

إن الحمد لله أحمده وأستعينه وأستهديه، والصلاة والسلام على من كان خُلقُه القرآن، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين. (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٩٢} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ {١٩٣} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ {١٩٤} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ {١٩٥}) (الشعراء:١٩٢-١٩٥). ، أما بعد:

فهذه دراسة أسلوبية تطبيقية على سورة (الحِجر)، تركز على معالجة الظواهر اللغوية، وبيان ما تؤديه من معان ودلالات، وذلك على المستوى الصوتي والدلالي والصرفي والنحوي والتصوير الفني، بمنهج وصفي وإحصائي بحيث تصل إلى امتياز سورة (الحِجر) بنسق خاص وأسلوب متفرد؛ إذ لم تكتف بالتناول الجزئي للنص، بل تعاملت معه بوصفه بنية لغوية متكاملة ذات دلالات إيحائية وجمالية فنية، ولعل هذا ما دفعني إلى اختيار الموضوع.

ثم اخترت سورة (الحِجر) من بين سور القرآن الكريم المعجز؛ لأنها لم تدرس أسلوبيا من قبل فيما أعلم، ولأنها سورة متوسطة من حيث عدد آياتها البالغ تسعا وتسعون آية، وهذا ما يتيح للباحث دراستها من مختلف جوانبها الفنية والكشف عن أسرار التعبير القرآني فيها؛ مما يساعد على إدراك الخصائص الفنية للغة القرآن الكريم.

وقد تنوعت مصادر البحث ومراجعه، فأفاد البحث من كتب الإعجاز القرآني، والتفاسير المتعددة، وكتب علم الأصوات والصرف والنحو والبلاغة والمعاجم، قديمها وحديثها، لاسيما التفاسير التي تهتم بالجوانب البلاغية والأسلوبية، وفي مقدمتها (الكشاف) للعلامة الزمخشري، و(التحرير والتنوير) للإمام ابن عاشور، و(في ظلال القرآن) لسيد قطب. إضافة إلى ما أفاده من بعض الدراسات الحديثة في الأسلوبية - نظرية وتطبيقا - نحو: (دراسات قرآنية في جزء عم) للدكتور محمود أحمد نحلة، و(الضفيرة واللهب) للدكتور إبراهيم خليل، وغيرها.

وانطلقت في دراسة مختلف الظواهر اللغوية للسورة من الفصل بين مستوياتها التعبيرية، فاستوت على أربعة فصول.

الفصل الأول: المستوى الصوتي.

ويعالج السمات الصوتية والخصائص الإيقاعية التي ساهمت في تشكيل البنية الصوتية لسورة (الحِجر). وتناولت فيه أهمية الدراسة الصوتية، والخصائص الصوتية للحروف كالجهر والهمس والتفخيم والتفشي. والموسيقى النابعة من تكرار الأصوات، والقيمة التعبيرية لها. وتحليل نماذج من المقاطع الصوتية قصد بيان الجمال الإيقاعي والمعنى الدلالي لها. ودراسة فواصل السورة بأنماطها المختلفة (المتوازي، والمتوازن، والتطريف، والترسل)، وأثرها في إحداث الانسجام الموسيقي والمعنوي.

الفصل الثاني: المستوى الدلالي للألفاظ.

وبحثت فيه عن سمات الألفاظ ومزاياها في سورة (الحِجر) ودقة اختيارها، ثم عن العلاقات الترابطية بين كلمات السورة، فدرست الترادف، والمشترك اللفظي، والتضاد، مع تتبع دلالات هذه العلاقات.

الفصل الثالث: المستوى الصرفي والنحوي.

وخصصت هذا الفصل للصيغ الصرفية في السورة، فتناولت بنية الأسماء التي تمثل فيها معلم أسلوبي، مثل: النكرة، والمعرفة بأنواعها، واسمي الفاعل والمفعول من المشتقات. و تناولت بنية الأفعال بنوعيها البسيطة (المفردة) والمركبة، وما رشح عنهما من دلالات ومعان. ثم تناولت البنية النحوية للسورة، فدرست ما تفردت به من تراكيب، نحو: (ربَما يودُّ)، و(إلا ولها)، و(لوما)، وما كثر تواتره من ظواهر نحوية كالتقديم والتأخير، والحذف، والتأكيد، وما رشح عنها من معان ودلالات.

الفصل الرابع: التصوير الفني.

ويتناول هذا الفصل مفهوم الصورة الفنية بآراء ومذاهب نقدية قديمة وحديثة، وخصائص التصوير الفني في القرآن، المعتمد على التشبيه، والاستعارة، والكناية، والحوار، والصور البصرية، وتصوير مشاهد يوم القيامة. ثم اختتم البحث في باب التناسق الفني في السورة، وقد وظف أغلب عناصر البحث في الكشف عن ترابط السورة فنيا عبر اللغة والمعاني، فظهر عنصر الوحدة الفني اعتمادا على لغة النص، وهذا مطلب رئيس في الدراسة الأسلوبية.

ثم سجلت في آخر البحث ما توصلت إليه من نتائج.

الفصل الأول:

المستوى الصوتي.

ويتناول المستوى الصوتي جوانب منها:

أولا: أهمية الدراسة الصوتية.

تعدُّ الدراسة الصوتية أول مداخل الولوج في عالم النص الأدبي، وأدناها إلى فهمه والإحساس بما فيه من الجمال الفني؛ " لأن الصوت أصغر وحدة في اللغة "(١)، وما النص الأدبي ـ مهما تباينت أجناسه ـ إلا بناء تجمع من هذه الوحدات الصوتية الصغيرة؛ ولذ انمازت الدراسات الأسلوبية بالاهتمام بالجانب الصوتي لاسيّما أن علم الأصوات من العلوم التي لقيت عناية ودراسة في ضوء علم اللّغة الحديث، فقد "عني الأسلوبيون بدراسة لغة الشّعر من خلال ما يتجلى فيها من قواعد النظم، والإتقان الصوتي، واستغلال ما في اللغة من ثراء صوتي ينشأ من تناسق الأصوات والحروف، ومن تكرار الكلمات والتراكيب، والتوازن الجملي والتركيبي"(٢). واهتموا بالمستوى الصوتي في شتى مناحي نسيج العمل الأدبي ومكوناته " من أصوات، وإيقاعات خارجية وداخلية، وتنغيم ونبر؛ لما تحدثه من أثر على المتلقي للنص الأدبي، فإذا سيطر النغم على السامع وجدنا له انفعالا حزنا حينا، أو بهجة وحماسا حينا آخر"(٣).

ثم إن دراسة الجرس الموسيقي للحروف، والاهتمام بالنغم وأنواع التوازن المختلفة مثل: توازن الألفاظ والتراكيب وتوازن الفواصل؛ ليبرز الأثر الفني للألفاظ في السياق الخاص الذي يعطيها التفاعل مع النص والسياق العام، فيتكامل التعبير الانفعالي بين المفردات أجمع؛ ليتشكل بعد جديد في الصورة الأدبية التي هي سبيل الكلام. يقول عبد القاهر الجرجاني: "ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه"(٤). وقدرة اللفظ في القرآن الكريم على التصوير، تنبع من ذلك الرنين الموسيقي الذي يجعل اللفظ متجاوزا وظيفته الصوتية، حتى يتجلى موحيا صادقا في إحساس السامع له،" فألفاظ القرآن موحية صادقة في جعل السامع يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، كما أنها تصور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموسا محسا "(٥).

---

(١) خان، محمد، اللهجات العربية والقراءات القرآنية دراسة في البحر المحيط، ط٢، دار الفجر، المغرب، ٢٠٠٢، ص٦٥.
(٢) خليل، إبراهيم، الضفيرة واللهب، أمانة عمان، عمان، ٢٠٠٠، ص٦.
(٣) أنيس، إبراهيم، موسيقى الشعر، ط٤، دار القلم، بيروت، ١٩٧٢، ص١٩.
(4) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١ هـ/ ١٠٨٣م أو ٤٧٤ هـ/ ١٠٨٨م)، دلائل الإعجاز،ط٥، (قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٢٥٤.
(٥) بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، ط٣، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٠، ص٢١٨.

وتكمن أهمية دراسة الأصوات في محاولة البحث عن مدى دلالتها على المعنى(المعنى الصوتي)[١]. ولعل الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من حاول ذلك من علماء العربية، وتبعه فيها تلميذه سيبويه، ووافقهما على ذلك جمع كبير من العلماء. يقول أبو الفتح عثمان بن جني في كتابه (الخصائص) في باب عقده لذلك، وأسماه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني): "اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته"[٢]. بل إن ابن جني ذهب في هذا القول مذهبا بعيدا، فقد كان يرى أن علاقة الأصوات بالمعاني قضية كبيرة الحجم، واسعة الباب، فيقول: " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها، ويحتذون عليها، وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره"[٣].

ومما يؤكد على مدى تنبه العلماء لهذه المسألة، واهتمامهم بها، شبه الإجماع الذي قرره جلال الدين السيوطي بين العلماء على مناسبة الألفاظ للمعاني التي وضعت لها، يقول: " وأما أهل اللغة العربية، فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني"[٤].

وقد ظلت هذه القضية مدار بحث حتى عصرنا هذا، وتحاور فيها المتحاورون، وكانوا بين متحمس وناقد. ومهما يكن من أمر، فإن الرأي الذي أطمئن إليه في هدوء واعتدال دون شطط أو جدل في التعامل مع هذه القضية التي كثيرا ما تجاذبتها ألسنة النقاد ما ذهب إليه محمد مفتاح حيث يقول: "إن هذه الإشكالية اضطربت فيها كثير من الآراء، ولكن كثيرا من الدراسات اللغوية المعاصرة تميل إلى القول بها، ونحن ننحاز إليها... وقد تسعفنا نصوص فلا نتجشم كد الذهن، وعناء اليد؛ لإحصاء الأصوات وتعددها ومنحها معنى... وقد تمتزج مع باقي العناصر الأخرى. وحينئذ، فإن السياق العام والخاص هو معيار تخويل المعنى للصوت. ومهما يكن من أمر، فإن السياق بمعنييه هو الحكم والفصل"[٥]. بهذا الفهم يكون للصوت قيمته التعبيرية والرمزية، ويصير "موحيا إيحاء خاصا، فهو إن لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة

---

(١) سلوم، تامر، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٣، ص٤٤.

(٢) ابن جني، أبو الفتح عثمان(ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠٤م)، الخصائص، ط٤، (تحقيق محمد علي النجار)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠، ج٢، ص١٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٥٩.

(٤) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت٩١١هـ/ ١٥٢٣م)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط١، (تحقيق فؤاد علي منصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج١، ص٤٠.

(٥) مفتاح، محمد ، دينامية النص تنظير وإنجاز، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، الدار البيضاء ـ المغرب، ١٩٨٧، ص٦٢.

اتجاه وإيحاء، ويثير في النفس جوا يهيئ لقبول المعنى، ويوجه إليه، ويوحي به"(١). مع ضرورة "البعد عن الإفراط في التوهم، أو محاولة إيجاد علاقات مبتسرة لا تصح إلا في وهم الناقد أو الدارس"(٢).

ويأتي الاهتمام بالنسيج الصوتي في محاولة الكشف عن خبايا النفس في حالاتها المختلفة "فليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير مناسبة لما في النفس"(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن الدرس الصوتي الباحث عن القيمة التعبيرية والإيقاعية بما يمنح النص صبغته الأدبية والجمالية يرتكز على ثلاثة فروع: " أولها: دراسة الأصوات مجردة، وثانيها: دراسة الإيقاع وتأثيره الجمالي... وثالثها: دراسة العلاقة بين الصوت والمعنى"(٤). فيدرس الصوت بنوعيه: الصامت والصائت، من حيث خواصه الإيقاعية، وجرسه، وسماته، ووظيفته الدلالية والإيحائية في سياقه الذي اختير له، " فمدار البحث في علم الأصوات أصوات اللغة في سياقاتها، ويبحث عن طبيعتها ووظيفتها، أهي أصوات ساكنة أم حركات احتكاكية أم حنجرية مجهورة أم مهموسة "(٥). ثم ينظر في التشكل الصوتي وأثره في الإيقاع؛ بالوقوف على مكوناته من المقاطع وما يتصل بها من نبر، وتنغيم، وحذف..."واستخدام بعض المحسنات اللفظية كالجناس والطباق والتكرار والترادف بما يؤدي إلى مزيد من الإتقان الصوتي، الذي لا يؤثر في حسن الأسلوب فقط، ولكن يؤدي إلى قوة المعنى "(٦).

---

(١) المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٨، ص٢٦١.
(٢) نحلة، محمود أحمد، دراسات قرآنية في جزء عم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٩٨.
وللمزيد في استقصاء آراء المحدثين وأقوالهم في هذه القضية الهامة انظر:
ـ المرجع نفسه، مقدمة الفصل الثاني، المستوى الصوتي.
ـ أنيس، إبراهيم، من أسرار اللغة، ط٧، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٣٩ ـ ١٥٠.
ـ العقاد، عباس محمود، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ط٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٣ ـ ٤٩.
ـ حسان، تمام، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية ومطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٥، ص١٣١ ، ٢٤٧ .
ـ الصالح، صبحي، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٨١، ص ١٤١ ـ ١٧٢.
ـ المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٣.
(٣) الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط١، (تحقيق عبد الله المنشاوي)، مكتبة الإيمان، مصر، ١٩٩٧، ص ١٨٤،١٨٣.
(٤) خليل، إبراهيم، في النقد والنقد الألسني، أمانة عمان الكبرى، عمان، ٢٠٠٢، ص١٤٢.
(٥) كشك، أحمد، من وظائف الصوت اللغوي، ط٣، مطبعة المدينة، دار السلام، ١٩٨٣، ص٧.
(٦) انظر: خليل، إبراهيم، في النقد والنقد الألسني، ص١٤٢.

ثانيا: ملامح الأصوات المفردة.

تعدُّ الدراسة (الفونيمية) الفرع الأول من الفروع التي تعنى بها الأسلوبية الصوتية، فالبناء الصوتي يظهر في بعض جوانب النص الأدبي عن طريق الملامح الصوتية التي تبرز بشكل يسترعي الانتباه إليها، فطبيعة الأصوات المفردة ومخارجها وصفاتها: من جهر وهمس وتفخيم وترقيق واحتكاك وانفجار تشكل المرحلة الأولى للدراسات الصوتية التي يأخذ بها الدارس الأدبي (اللساني).

ولكل صوت (فونيم) سماته الخاصة التي تميزه عن غيره ـ من حيث القوة والشدة أو السهولة والليونة ـ فإذا ما أدخل عالم النص حمل معه من الملامح الموحية ما يفضي إلى تأمل الجمال الفني والمتعة التعبيرية في هذا النص، ولاسيما إذا انسجم هذا الصوت وتناغم مع المعنى والسياق العام في تفاعل نشط، ليحصل الانسجام الذي يمثل ركنا من أركان الشكل للعمل الأدبي، ونعني بالانسجام " أن يكون الكلام لخلوه من الانعقاد متحدرا كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة، والقرآن كله كذلك "[١].

وللدراسة الأسلوبية ـ حسب منهجها ـ تركيز على الظواهر التي تتكرر، أو التي يكون لها أثر لافت في البناء اللغوي للنص، بحيث تشكل خصوصية بارزة في النص الأدبي، و"لاسيما تكرار الحروف من حيث إنه ضرب من الانتقاء الأسلوبي، فتكرار حرف معين... يتجاوز الرغبة في التأكيد على معنى بعينه إلى إشاعة شيء من التناسق والإتقان الصوتي الذي يترك أثرا قويا في النفس"[٢]. فقوة الأصوات المجهورة يجعل لها تأثيرا يختلف عن المهموسة، وكذا الحال بين الأصوات المفخمة والمرققة، وبين الشديدة والرخوة، فلكل صوت منها فاعليته الجمالية والمعنوية التي تؤثر في النشاط الإيقاعي والانبعاث الموسيقي "وهذه الفاعلية الجمالية تتحدد بأشياء كثيرة، منها النغمة المميزة لكل صوت من الأصوات، وغنى الصوت بالنغمات الثانوية "[٣].

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ/ ١٥٢٣م)، الإتقان في علوم القرآن، (تحقيق محمد أبو الفضل)، ط٣، دار التراث، القاهرة، ص٢٦١ .
(٢) خليل، إبراهيم، الضفيرة واللهب، ص٥٢ .
(٣) عياد، شكري، موسيقى الشعر العربي، ط٢، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٨، ص١١٣.

ولا ريب في أن أول ما يلاقي دارس النص القرآني خاصية تأليفه الصوتي، ولاسيما حينما يسمعه يتلى ويرتل؛ " لأن اللغة المحكية (المنطوقة) هي التي يتمثل فيها انعكاسات الأصوات"(١) فيتكشف له الإتقان في بنائه الأدبي، والروعة في فنيته الموسيقية التعبيرية.

وبدراسة بعض تجليات الملامح الصوتية في سورة (الحِجر) يتضح مدى التوافق والانسجام بين طبيعة الأصوات والمعنى. ولأن أول ما يتشكل في مراحل التكون الصوتي ملمحا الجهر والهمس(٢)؛ إذ لهما علاقة مباشرة بحركة الأوتار الصوتية وتذبذبهما بشكل قوي أو لين، عمدنا إلى تقديمهما في التحليل والدراسة.

الجهر.

وينتج الجهر في الأصوات عن " اهتزاز الوترين الصوتيين اهتزازا منتظما يحدث صوتا موسيقيا يميزه ارتفاع في شدة الصوت"(٣)، فيكون له من سمات القوة والوضوح(٤)، وطبيعة التأثير ما لا يكون لغيره من الأصوات.

وقد برزت الأصوات المجهورة في سورة (الحِجر) على نحو يشكل ملمحا أسلوبيا، لأنها من السور المكية التي تُجادلُ المشركين في مسائل الوحدانية والنبوة والقرآن الكريم والبعث، وهذه مسائل وقضايا تستلزم الشدة في الطرح، والقوة في الجدال، والوضوح في المعاني. ونلحظ ذلك من بداية السورة حيث التعريض بإعجاز القرآن الكريم بتلك الأحرف التي هي من جنس كلام العرب الذين ما استطاعوا أن يأتوا بآية من مثله، قال Y: (الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}). وهذا المقصد قد أَولتهُ السورة عناية خاصة؛ إذ تناولت قضية القرآن وإعجازه في مفتتح السورة ومختتمها. ففي البدء ذكرت موقف المشركين (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦})، ثم جاء الرد الإلهي عليهم بآية حشدت بالأصوات المجهورة حشدا، وذلك لما لجرسها من وقع أقوى، وتأثير أشد في دفع الدعوى وردها، والكشف عن حقيقة هذا الكتاب المعجز، وأنه من عند الله العزيز الحافظ، ففي قوله Y:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}) نجد الأصوات المجهورة شديدة البروز، ولاسيما حرف النون الذي يشكل ملمحا أسلوبيا في السورة أجمع ـ حيث انتهت به رؤوس الآيات في سبع وثمانين آية من تسع وتسعين ـ وفي مثل هذه المواطن التي تحتاج إلى مزيد من التوضيح والتقريع.

(١) طحان، ريمون، الألسنية العربية، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢، ج١، ص ٦٤ .
(٢) أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ط٣، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٢١.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ص٢٠.
(٤) القيسي، مكي بن أبي طالب،(ت ٤٣٧هـ/١٠٤٩م)، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ط٣،(تحقيق أحمد حسن فرحات)، دار عمار، عمان، ١٩٩٦، ص١١٧.

إن تكرار صوت (النون) المجهور[١] في هذه الآية قد ورد تسع مرات حال فك إدغامه في (إِنَّا) المتكررة مرتين. وليس تكرار النون بأقل أهمية من هذا الإدغام الذي قد زاد من التأكيد على معنى الآية وتقريرها كما لا يخفى. واشتملت الآية على حرفي (الزاي المشدد واللام في (نَزَّلْنَا) وحرفي(الذال المشددة والراء) في (الذِّكْرَ) وحرف (اللام) في (لَهُ) و(الظاء واللام) في (لَحَافِظُونَ) وكلها حروف مجهورة[٢]؛ لتشعر بذلك التجانس في الأصوات بما يحقق لها جرسا خاصا، ذلك الجرس الذي" هو انسجام بين النغمة الأساسية والأصوات الثانوية، فإذا سمعته الآذان شعرت بالطرب الذي تشعر به حين تسمع أية موسيقى"[٣]. وقد توزعت الأصوات المجهورة على الآية كلها (إِنَّا، نَحْنُ، نَزَّلْنَا، الذِّكْرَ، إِنَّا، له، لحَافِظُونَ) كل هذا في خط منسجم ومتواز مع المعنى الذي تحمله الآية الكريمة، فالله Y هو منزل الذكر، وهو حافظه، فقد " شمل حفظه الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، وسلمه من التغيير والتبديل حتى حفظته الأمة عن ظهور قلوبها"[٤]. وفي اجتماع الأصوات الذلقية (النون (إِنَّا ، نَحْنُ) الراء(الذِّكْرَ)، اللام(نَزَّلْنَا ، لحَافِظُونَ)) في المراكز المعنوية للآية، وهي "حروف تشترك في نسبة وضوحها الصوتي، وأنها من أوضح الأصوات الساكنة في السمع"[٥] ما ينبئ عن خطر القرآن الكريم وأهميته.

ويطل علينا حرف النون المجهور مرة أخرى بشكل بارز في قوله Y: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ{٢٣}) فقد شكل حرف النون المتكرر تسع مرات عنصر قوة وتأثير في المعنى، معنى البعث والنشور الذي أنكره المشركون أيَّما إنكار! وهذا المعنى مقصد من مقاصد هذه السورة المكية الكريمة كان بمثابة استهلال لسرد قصة خلق الإنسان الكبرى، قصة نبي الله آدم ـ عليه السلام ـ. وفي اختيار هذا الاستهلال بإيقاع قوي مفعم بالأصوات المجهورة لحسن وبراعة؛ إذ يشد المستمع وينبهه إلى ما في السياق من معان ينبغي أن تنصت إليها الأذن الواعية. ومما يزيد من استرعاء الانتباه في الآية تكرار الضمير المنفصل (نَحْنُ) وقد تضمن حرف النون أربع مرات؛ لأنه المركز المعنوي الأهم، فما من محي ولا مميت إلا الله Y حسب. ولأن موضوع البعث من أشد المسائل التي عالجتها السور المكية عامة وسورة (الحِجر)

---

(١) السعران، محمود، علم اللغة العام مقدمة للقارئ العربي، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٤١.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ١٢٨ وما بعدها.
(٣) جويو، جان ماري، مسائل فلسفة الفن المعاصر، ط١،(ترجمة : سامي الدروبي)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٤٧ .
(٤) ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، ج١٤، ص٢١ .
(٥) أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٥٣ .

خاصة، قال الله Y بين يدي الآية: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤})، ليبرز عندها ما يسميه الأسلوبيون بـ "المقابلة الصوتية "(١). لاحظ:(نحيي× نميت، علمنا(ضمير المتكلم)×منكم(ضمير المخاطب)×المستقدمين ×المستأخرين)، هذا مع الجهر الشديد في حرفي اللام والدال(٢) مع بداية كل جملة من الجملتين (لَقَدْ). وفي تكرير قوله Y:(وَلَقَدْ عَلِمْنَا) مالا يخفى من الزيادة على التأكيد. ثم تتجلى هذه المقابلة على أتم وجه في الآية التي تعقبهما، قال Y: (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}). تأمل كيف جاء الحق سبحانه بضمير الفصل(هُوَ) وأعقبه بالضمير المتصل " هُمْ " في قوله " يَحْشُرُهُمْ"(هو×هم) لتظهر هذه المقابلة الصوتية، التي تضفي على المقطع موسيقى متوترة تفصح لنا عن ذلك الجدال الشديد بين الرسولε، والمشركين المنكرين.

الهمس:

والهمس ملمح ضد للجهر، يتسم بالليونة في طبيعته وتكونه، "فالصوت المهموس هو الصوت الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان، ولا يسمع لهما رنين حين النطق به "(٣). وللصوت المهموس إيحاءاته الدالة التي تناسب السياق النصي لسورة (الحِجر).

ففي قوله Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦} وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨})، سيقت الآيات للحديث عن دلائل التوحيد السماوية، وتجلي القدرة الربانية على هذا الخلق الكبير، و"ظل الضخامة واضح في السياق، فالإشارة في السماء إلى البروج الضخمة، تبدو ضخامتها حتى في جرس كلمة (بروج)(٤) (الباء: حرف مجهور انفجاري شديد، والراء:حرف مجهور تكراري، والواو: حرف مجهور انزلاقي، والجيم: حرف مجهور)(٥) ومن بين هذه الأجواء الضخمة تبرز صورة إبليس بما توحي به من ضعف وهزال. فقد رسمت لنا الأصوات المهموسة صورة إبليس البائسة أمام تلك القدرة الربانية العظيمة، ولتلمس الروعة في توظيف حروف الهمس في الآية وتوزيعها ارجع البصر في قوله Y: (إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨})، حيث أحرف السين والتاء والقاف وقد تتابعن بشكل منتظم في الآية (س، ت، ق، س، س، ت) وكان من حظ كلمة

---

(١) انظر: خليل، إبراهيم، الضفيرة واللهب، ص٦٦.
(٢) السعران، علم اللغة العام، ص ١٣٤.
(٣) أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٢٠.
(٤) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط٢٢، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٩٤، ج٤، ص٢١٣٤.
(٥) انظر: السعران، علم اللغة العام ، ص ١٢٨ وما بعدها.

(اسْتَرَقَ) وحدها ثلاثة منها، وذلك لأن السرقة هي مركز الآية المعنوي، ومن المهم توصيفها؛ فهي سرقة متخف خائف مسرع، لا يكاد يتحصل على شيء، يشي لنا بهذا حرف السين، وهو"صوت صامت مهموس لثوي احتكاكي... لا يتأتى نطقه ولو فتح الفم أثناء تكونه إلى حد كبير، بل إنه ليحدث في نطق كثيرين له أن تلتقي الأسنان السفلى بالأسنان العليا"(١). و يشابهه في مخرجه هذا حرف التاء، فهو مهموس أسناني(٢). وبتتابع الصوتين يتحقق جرس يوحي بالخفاء. "ومعنى استراقه الاستماع بخفية من المتحدث كأن المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذي يخفيه عنه "(٣). ويصحب هذه الاختلاس خوف وخطورة في تقدم إبليس تجاه السماء حيث الشهب، هذا ما تصوره صفة الانفجار في صوت التاء(٤)، فهو مع ما يحققه من معنى الهمس إلا أن لصفة الانفجار ما يوحي بتخوف إبليس، جرب أن تلفظ الكلمة وقد استبعدت حرف التاء(٥) منها فستجد سهولة في النطق تزيل عنصر الخوف ذاك، فتفقد الصورة من جمالها هذا المعنى الذي يؤكده تتمة الآية: (...فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ {١٨}). وفي ملمح الراء ما يؤيد ما نقول؛ فالشيطان يحاول المرة بعد الأخرى صعودا وهبوطا نحو السماء لعله يحظى بشيء، تماما كحركة الراء الذي توسط حروف الهمس في الكلمة ليدل على هذا التردد في حركة الشيطان، فحرف الراء من حروف التكرار؛ إذ "يتكون صوت الراء العربي بأن تتتابع طرقات طرف اللسان على اللثة تتابعا سريعا، ومن هنا كانت تسمية هذا الصوت بالمكرر "(٦).

وفي تتابع صوت اللين " الفتحة (ت ـَ، ر ـَ، ق ـَ) مزيد تأكيد على ما سبق؛ إذ في سرعة الإيقاع ما يصور إبليس السارق وهو متخف وخائف ومسرع. إننا بهذه الفرضية الصوتية نفهم قول ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في تفسير قوله Y:(إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ) يريد الخطفة اليسيرة "(٧). إنها يسيرة لأنها سرقة خفية كخفاء السين والتاء والقاف، مخوفة بانفجار التاء، مترددة ومضطربة كصعود الراء وهبوطها، سريعة كتتابع الفتحة وتواليها.

ومما أفاده ملمح الهمس في السورة تصوير نفسية نبي الله Y لوط ـ عليه السلام ـ عندما جاءه قومه الخبث يهرعون إليه، إذ سمعوا خبر مجيء شبان حسان إليه، قصدا للفاحشة. وما

---

(١) السعران، علم اللغة العام، ص ١٤٥، ١٤٦.
(٢) المرجع نفسه: ص ١٢٩.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص ٣١.
(٤) السعران، علم اللغة العام، ص ١٢٩، ١٣١.
(٥) وهذا ما يسمى في الأسلوبية الصوتية بـ" محور الاستبدال" أي وضع صوت مكان صوت أو كلمة مكان أخرى. انظر: خليل، الضفيرة واللهب، ص ٥٤.
(٦) السعران، علم اللغة العام، ص ١٤٢.
(٧) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي(ت بعد ٨٨٠هـ/١٤٩٢م)، اللباب في علوم الكتاب، ط١، (تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج١١، ص ٤٤٠ .

دروا أن هؤلاء ملائكة، كما أن لوطا ـ عليه السلام ـ لما يعرف. يصور لنا القرآن جانبا من نفسية لوط ـ عليه السلام ـ نتلمسه من خطابه قومه. قال Y على لسان لوط ـ عليه السلام ـ :(قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ{٦٨}) أرهف سمعك بصفة خاصة لحرف الفاء المهموس الشفوي الاحتكاكي[١] الذي تكرر في مركزي الآية المعنويين (الضيوف،الفضيحة) وتوسطهما في (فَلاَ). وإنك لو حاولت أن ترفع صوتك فسيظل منخفضا؛ بجرس الهمس والاحتكاكية والرخاوة في حرف الفاء المتكرر ثلاث مرات على نحو متتابع متصل، يعضده في ذلك حرف الحاء المهموس[٢]. ولعل الضعف الذي يحمله حرف الفاء[٣] في جرسه يصور لنا حالة الضعف التي كان عليها لوط ـ عليه السلام ـ في تلك اللحظة؛ إذ خاطبهم بهذه الطريقة الخافتة، وكأنه يهمس في آذانهم همسا خشية أن يسمع ضيوفه الحوار الدائر بينه وبين قومه، فيكون ذلك سببا في فضيحته أمامهم.

ويبقى لظهور حرف الضاد ـ الشديد المجهور الانفجاري[٤]ـ المتكرر مرتين على نحو منفصل[٥] دوره المهم الذي يصور لنا حال الشدة التي وقع فيها لوط ـ عليه السلام ـ جراء قومه. ومما يسترعي الانتباه أن يتوسط هذين الحرفيين حرف الفاء متصلا بتكراراته الثلاث، ثم يعقب الضاد حرف الحاء المهموس الاحتكاكي[٦](ض، ف، ف، ف، ض، ح) وهو بهذا التوزيع إنما يدل على أن لوطا ـ عليه السلام ـ كان بوده لو يستطيع أن يطردهم طردا. فقد بدأ حديثه غاضبا معنفا (ض) ثم لزم الهدوء وأطال في التلطف معهم خوفا من الفضيحة أمام ضيوفه(ف، ف، ف) ثم عاد ليعنف حينما لم ير منهم استجابة(ض)، ولكنه كان مضطرا لالتزام الهدوء فعاد إلى التلطف مرة أخرى(ح). ومما يعين على إدراك ما دلت عليه الأصوات وأوحت ما قاله لوط ـ عليه السلام ـ لقومه مصورا حالة الضعف تلك (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ{٨٠})(هود:٨٠).

(١) السعران، علم اللغة العام، ص ١٤٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٨.
(٣) القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ٢٢٧.
(٤) أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٤٩، ٥٠.
(٥) يقول الدكتور إبراهيم خليل: " وهذا التكرار المتعمد يغني التشكيل الصوتي.... وتكرار الحروف منه ما يكون متصلا، أي: بين كلمات متتابعة، ومنه ما يكون منفصلا، أي بين كلمات متباعدة..... والتكرار سواء أكان متصلا أو منفصلا يسهم في تحقيق الأسلوب الصوتي " الضفيرة واللهب، ص ٥٢.
(٦) السعران، علم اللغة العام، ص ١٤٩.

التفخيم.

ظهرت بعض الدلالات لملمح التفخيم، وهو ما ينتج عن حركة مؤخرة اللسان إلى الطبق عند النطق بالصوت(١)، حتى يظهر فيه من القوة والتمكّن والتعظيم ما يخالف الصوت المرقق الذي يقابله.

والنص القرآني في استخدامه لبعض أصوات التفخيم وتكرارها يقصد إلى تصوير بعض المواقف، وتشخيصها تشخيصا يشعرنا بما تحمله هذه الأصوات من طاقات نغمية وشحنات إيقاعية بمقدورها إضفاء بعض الأجواء النفسية المؤثرة والظلال الموحية على المعنى. ومن أبرز الأصوات المفخمة(الطبقية) تصويرا وتشخيصا للموقف صوت الصاد، وهو " حرف قوي، لأنه مطبق، مستعل، فيه صفير، وهو مهموس. فيجب على القارئ أن يلفظ بها مفخمة"(٢).

تخبرنا الآيات الكريمة عن الحال التي آل إليها أصحاب (الحِجر) بعد أن كذبوا رسولهم صالحا ـ عليه السلام ـ فصاروا بذلك مكذبين لجميع الرسل (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجرِ الْمُرْسَلِينَ{٨٠}) " فإن من كذب واحدا من الرسل فقد كذب الباقين؛ لكونهم متفقين في الدعوة إلى الله"(٣). وتذكر الآيات مقدار قوة أصحاب الحِجر وبأسهم، قال Y: (وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢}) " فكانوا يتخذون من الجبال بيوتا لأنفسهم بشدة قوتهم"(٤). لكن الله Y كان لهم بالمرصاد، فأرسل عليهم عذابا استأصلهم استئصالا، تأمل قوله Y:(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{٨٣}) فتلحظ حروف التفخيم بارزة تباعا بما يحاكي صوت العذاب(خ، ذ ـــ أخذتهم، ص المشددة ـــ الصّيحة، ص ـــ مصبحين) لتسهم في تهويل وتفخيم العذاب الذي حل بهم. فقد لون صوت الصاد بتكراراته الثلاثة مع صوتي الخاء والذال لوحة العذاب بلون قاتم أضفى على المشهد قوة وشدة، لعلها تناسب الحال التي كانوا عليها.

ومن الانتقاء الصوتي الذي يستوقف الدارس وصف الله Y امرأة لوط ـ عليه السلام ـ بقوله:(إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠}) ومعنى الغابر: الباقي(٥). وعند النطق بكلمة

---

(١) انظر: القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ١٢٨.
(٢) القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ٢١٥.
(٣) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٥هـ/ ١٨٦٧م)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،دار المعرفة، بيروت، ج٣، ص١٤٠.
(٤) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ/ ١٢٨٣م)، الجامع لأحكام القرآن، (قدم له الشيخ خليل محيي الدين الميس) دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥، ج١٠، ص ٤١.
(٥) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم(ت٧١٠هـ/ ١٣٢٢م) لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، مادة(غبر)، ج٥، ص٦.

غابر يظهر ملمح التفخيم في حرف الغين، وحرف الألف الذي جاوره فوجب تفخيمه. بخلاف كلمة الباقي، إذ الباء مرققة وكذا الألف. فـ "غابر" وصف يتضمن ملمح التفخيم، "فيجب على القارئ أن يلفظ بالغين مفخمة إذا وقع بعدها ألف نحو: (الغابرين) "[١] الأمر الذي يزيد من بروزه واسترعاء الانتباه له، فلا يظن أن امرأة لوط ـ عليه السلام ـ نجت من العذاب.

وحرف الغين المفخم مع ألفه المفخمة ليعيدنا بجرسه هذا إلى كلمة سبقت تحمل نفس الموسيقى والجرس، بل ولها نفس الظلال المؤذنة بالعذاب والعقاب. قال Y: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢}). إنها كلمة (الغَاوين) هؤلاء الذين تنكبوا طريق الحق والهدى، واتبعوا سبيل إبليس فصاروا من (الغابرين) معه. وفي توظيف حرف الغين في كلمة (الغابرين) نكتة صوتية؛ فإبليس ـ لعنه الله ـ أقسم على الله Y ـ كما في الآيات السابقة ـ أن يغوي بني آدم، ويلاحظ هنا بروز حرف الغين المفخم في مركز الآية المعنوي، وهو الإغواء الذي لحق بإبليس مما جعله يقطع على نفسه وعدا في إغواء الخلق(أغويتني، لأغوينهم). ثم جاء الرد الرباني متضمنا لحرف الغين المفخم إذ استخدم التعبير القرآني نفس الوصف، مما زاد من بروز هذا المظهر الأسلوبي الصوتي، قال Y: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢}) ثم عند وصف الله Y عن امرأة لوط ـ عليه السلام ـ وهي من (الغاوين) قال Y: (إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠}) ليعلم أن من عباد الله Y من قد انقطعت مخالب إبليس دونهم فعصمهم، ولوط ـ عليه السلام ـ وأهله كانوا من هؤلاء المعصومين إلا امرأته كانت من الغاوين الغابرين. ولعل في مثل هذه الفرضية الصوتية ما يدلل على مدى تماسك النص في بنيته وموسيقاه الداخلية؛ إذ حدث أن أحالتنا كلمة (الغابرين) بجرسها القوي في سياق الحديث عما أصاب قوم لوط ـ عليه السلام ـ إلى الحوار الذي توعد فيه الله Y إبليس ومن تبعه من (الغاوين) نار جهنم.

ومن الأصوات المفخمة التي حققت ظاهرة صوتية في السورة حرف الراء وهو من الحروف التي " اتسعت فيه العرب فأخرجته في اللفظ مرة مرققا.... وأخرجته مرة مفخما "[٢]غير أننا نجد التفخيم قد غلب عليه جدا، فقد ورد حرف الراء (٩٢) مرة، جاء في (٧٣)

---

(١) انظر: القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ١٦٩.
(٢) القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ١٩٥.

مرة مفخما و(١٩) مرققا[١]. وكان أول ظهوره مفخما، حيث ورد في الآية الأولى مرتين قال Y: (الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}) (الر، قرآن) ثم تكرر في الآية التي بعدها مفخما مرتين(رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢}) (رُّبَمَا، كَفَرُواْ)، ثم مرة في كل من الآيتين الثالثة (ذَرْهُمْ) والرابعة (قَرْيَةٍ) (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣} وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}). وتكراره على هذا النحو المفخم يضفي على الجو العام للسورة ملامح الشدة والقوة، وهذا يتناسب ومحور السورة الذي " يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد، ملفعا بظل من التهويل والوعيد "[٢]. ولا شك أن في تفخيم الراء ما يناسب هذا المحور ويخدمه بخلاف ما لو كان مرققا. وبذا جاء التناسب جليا بين الأصوات والجو العام لمطلع السورة حيث رأينا تكرار الراء المفخمة ست مرات.

التفشي.

ومن الصفات الصوتية التي شكلت مظهرا صوتيا في الصورة صفة التفشي، وهي صفة مختصة بحرف الشين، ومعنى التفشي: " كثرة خروج الريح بين اللسان والحنك وانبساطه في الخروج عند النطق بها"[٣]. وقد برزت هذه الصفة في قوله Y: (قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ{٥٣} قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ{٥٤} قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ{٥٥}). وفي تكرار صوت الشين ثماني مرات ـ إن فك التشديد ـ ما يدفع الفكر للتأمل دفعا؛ فإذا كان " الأديب أو الفنان حين يقع في أثره الأدبي تكرار لبعض الأصوات....إنما يأتي ذلك من صدقه الفني والشعوري، وتعبيره الصادق عما يحس به ويشعر"[٤] فإن كلام الله Y ما وضع منه حركة بله حرف أو كلمة إلا لبلاغة وإعجاز.

فالآيات تكشف لنا عن حالة الخوف التي ألمت بنبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين مجيء الملائكة إليه؛ فلم تذكر لنا رد إبراهيم ـ عليه السلام ـ السلام على الملائكة حين دخلوا عليه مسلمين (إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ{٥٢}). ووجلون أي خائفون "فإن

(١) يقول الدكتور إبراهيم أنيس: " ولكن الكثرة فيما ورد من الراءات جاء مفخما "، الأصوات اللغوية، ص ٥٥. أقول: ومع هذا تظل الدراسة الصوتية تتساءل عن دلالة ذلك في النص.
(٢) الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، ط٩، دار الصابوني، القاهرة، ج٢، ص ١٠٤.
(٣) القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ١٣٤.
(٤) نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص ٩٨

الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه "(١). ويصور السياق نفسية إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد اكتنفها الخوف والفزع. لكن القصد من مجيء الملائكة ليس إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد بينوا وجهتهم ومقصدهم (قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨}) وهم في سبيلهم هذه يحملون بشارة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ لا الوجل، فيحضر حرف الشين بجرسه الصوتي ليصور لنا وقع تلك البشارة على نفس إبراهيم ـ عليه السلام ـ و بهجته بها؛ ليحقق توازنا في الصورة، فينتقل بها من ظلال الوجل والخوف إلى الفرح والاستبشار. هذا الفرح الذي عم الجو وانتشر فيه كانتشار الهواء وتفشيه عند النطق بحرف الشين المتكرر ثماني مرات، مع التشديد الذي يزيد من صفة التفشي فيه. وهذه البشارة إنما هي بشارتان معا، فالمولود ذكر وليس أنثى، ثم إنه سيكبر ليصير نبيا عليما. والغلام هو إسحاق ـ عليه السلام ـ كما ذكر الله Y ذلك في سورة هود (وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ{٧١}).

أصوات المد واللين(٢).

تستوقف أصوات المد واللين الدارس أثناء تأمله لغة القرآن وتشكلاته الصوتية باحثا عن أثرها في المعنى، وكيف تساهم في إيصاله للسامع؛ فظاهرة المد في القرآن الكريم كغيرها من الظواهر التي لا تخلو من أن تحمل في طياتها أسرارا معنوية وصورا فنية.

ومن أحرف المد (الألف) في الأحرف المقطعة في بداية السورة، والتي اختلفت الأقوال في تفسيرها. وأرى أنها سيقت للدلالة على إعجاز القرآن الكريم، وتحدِّيه المشركين أن يأتوا بمثل آية منه. قال Y: (الَر ۚتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}). فدلالة المد المعنوية في هذا المقام هي إظهار الصوت في حال الجهر وكأن شخصا ينادي الناس أن انتبهوا، وتعالوا انظروا في إعجاز هذا القرآن الكريم وبلاغته؛ فالحروف المقطعة حيثما وجدت كان لها المد ملازما، ثم إن" كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته"(٣). وكان المد دون سواه؛ لوضوحه في السمع ولاسيما حرف الألف فهو أكثر الصوامت وضوحا(٤)، وليست تخلو تلكم الحروف المقطعة من المد، سواء أكانت مكونة من حرف نحو (ص، ن، ق) أو حرفين نحو (حم) أو ثلاثة نحو (الم) أو أربعة نحو (المر) أو

(١) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني،أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي(١٢٧٠هـ/ ١٧٨٢م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١٣، ص ٦٠ .
(٢) انظر في حدود هذه الأصوات تفصيلا: أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص ٢٧.
(٣) ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل(ت ٧٧٤هـ /١٣٨٦م)، تفسير القرآن العظيم، ط١، (قدم له عبد القادر الأرناؤوط)، دار الفيحاء- دمشق، دار السلام ـ الرياض، ج١، ص ٦٤.
(٤) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٣٨.

خمسة نحو(حمعسق)؛ وذلك لأننا نلفظ الحروف بأسمائها لا بأصواتها. اجهر بصوتك (الر) (ألف، لام، را) ملاحظا المد في الألف، وهو مد لازم مقداره ست حركات[1]، وقد توسط حرفي اللام والميم، وهما من أكثر الأصوات الساكنة وضوحا[2]، ثم تبعه المد الثاني بعد حرف الراء وهو مد طبيعي مقداره حركتان[3]. إن المقطع محشود بالأصوات شديدة الوضوح، ولاسيما المد منها، لأن الحديث عن القرآن وإعجازه محور أساس قامت عليه السورة، كما ألمحنا قبل، فانتقى التعبير القرآني من الأصوات ما كانت ذا جرس أوضح.

ومن المعاني التي أفادها المد في السورة معنى الشمول، تأمل قوله Y: (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}). فقد تكرر صوت المد ست مرات (ما / نا / لا / ها / تا/وم). وفي اختيار التعبير القرآني لـ(أهلكنا) دون (دمرنا) يتبين لنا الوظيفة الدلالية التي يؤديها المد في حرف النفي (َمَآ) وقد مد الصوت فيه على نحو نستشف منه أن لا قرية تخرج عن هذا الحكم، فما من أمة حق عليها الهلاك إلا وقد متعها الله Y زمنا ثم كان لهلاكها أجل ووقت محدود.

وقد يكون للمد في معنى الشمول دوره الأبرز في إتمام الصورة الأدبية، كما في قوله Y: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١}) فـ(شيء) نكرة، و(عندنا) ضمير جماعة، و(خزائنه) اسم جمع، وكلها تشترك في الدلالة على معنى التهويل والتعظيم، وبالمد في (خزآئنه) اكتملت الصورة؛ إذ أفاد معنى الشمول فـ "ما من شيء ينتفع به العباد إلا والله Y قادر على إيجاده وتكوينه والإنعام به"[4]. وهذا يتناسب وسياق الآيات؛ إذ دل على عظم ملكوت الله Y.

وفي قوله Y: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢}) من الملامح الصوتية ما يشكل انصبابا أسلوبيا، زاد من إيحاءات الآية ودلالاتها. فقد بلغ عدد الصوائت الطويلة في الآية اثني عشر(نا، يا، وا، نا، ماء، ماء، نا، مو، ما، لهو، خا، ني) كان حظ الألف منها تسع، وهذا ما يتناسب والبروز الذي تتطلبه الآية لمعنى

---

(١) انظر: معبد، محمد أحمد، الملخص المفيد في علم التجويد، ط٧، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٩٥، ص ٩٠.

(٢) أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٢٨.

(٣) معبد، الملخص المفيد في علم التجويد، ص ٦٨.

(٤) انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(ت ٥٣٨هـ/١١٥٠م)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، (تحقيق عبد الرزاق المهدي)،دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٥٣٨.

المن الرباني على الخلق؛ إذ أنعم عليهم بنعمة الماء، وقد رزقهم إياه دونما جهد منهم. "ونلحظ في التعبير أنه يرد كل حركة إلى الله حتى شرب الماء"[١]. وهذا ما نتلمسه من جرس المد "فأسقيناكموه" وقد تكونت من سبعة مقاطع(ف/ أس/ قي/ نا/ ك/ مو/ هـ) وهو الحد الأعلى الذي تبلغه المقاطع الصوتية في العربية، "فالكلمة العربية مهما اتصل بها من لواحق أو سوابق، لا تزيد عدد مقاطعها على سبعة"[٢]، وفيه دلالة على أن في جلب الماء عسر إلا أن الله يُيسِّره. ولحرفي المد (نا/مو) دلالتهما على المعنى، فالمد بالألف اقترن بضمير الفاعل" نا " ويحيلنا إلى الله Y فناسبه الألف ليدل على العلو والسمو الإلهي، وقابله المد بالواو ونلمس في نطقه - بعد المد بالألف - نزولا يدل على الإنسان في هذه البسيطة. أضف إلى ذلك ما أداه المد بارتفاعه وهبوطه من تصوير المطر حال نزوله من السماء .

ونلمس إيقاعا بطيئا أحدثه المد بالترجيع الصوتي (من السمآء مآء)، يصور الماء متمكنا في السماء، وأن لا مُخرج له إلا الله وحده؛ فالله Y هو الذي أرسل الرياح لتلقح السحاب بالماء وتملأه، وهو الذي ينزله من السماء، وهو الذي يخزنه أنى شاء.

وللمد - بما يحمله من زمن في نطقه - دلالته المعنوية في قوله Y: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩}) حيث تتكرر في المركز المعنوي للآية؛ فالمد الأول (الألف والياء) من(عِبَادِي) يمثل دعوة الخلق كلهم إلى أن يتحققوا بصفة العبودية لله Y، "فالإضافة للعموم كما هو شأن الجمع المعرف بالإضافة"[٣]. والمد الثاني (الياء) من (أَنِّي) يحمل دلالة التأكيد على أن الله هو الغفور الرحيم. فقد تأكدت المغفرة والرحمة بـ (أنّ)، وحذفت الألف عند القراءة من (أنا) المشار بها إليه سبحانه توصلا إلى صفتي (الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). ثم المد بالواو من (الْغَفُورُ)، والياء من (الرَّحِيمُ) وفيهما الدلالة على سعة مغفرة الله Y ورحمته. وبمجموع أصوات المد تأتي الدلالة الكلية في الآية وهي أن مغفرة الله Y ورحمته تشمل كل متصف بالعبودية الحقة له سبحانه.

ويشكل تعاقب أصوات اللين القصيرة (الحركات) وتتابعها ملمحا أسلوبيا ومثيرا للباحث في الظواهر الأسلوبية الكاشفة عن فنية النص القرآني. قال Y: (كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢١٣٥.
(٢) أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١١٢.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٥٣.

الْمُجْرِمِينَ{١٢}) ومعنى السلك: الإدخال " يقال: سلكت الخيط في الإبرة، وأسلكه إذا أدخلته فيها ونظمته. والضمير للذِّكر"[١]. ومما يعين على تلمس الروعة الفنية في جرس أصوات اللين ودلالتها في (نَسْلُكُهُ) ما ذكره ابن عاشور من معنى سلك القرآن الكريم في قلوب المجرمين، قال: " أي هكذا نولج القرآن في عقول المشركين، فإنهم يسمعونه ويفهمونه إذ هو من كلامهم ويدركون خصائصه"[٢]. وهذا ما حققته أصوات اللين بتتابعها (صائت قصير ل ـُ + صائت قصير ك ـُ + صائت طويل هـ و) إذ صورت القرآن الكريم وقد غار إلى سويداء قلوب المشركين، "ولكنه لا يستقر في عقولهم استقرار تصديق، بل هم مكذبون به.... وبهذا السلوك تقوم الحجة عليهم "[٣] .

ثالثا: إيقاع الوحدات اللغوية المتكاملة.

ومما لوحظ في سورة (الحِجر) انتقاء التعبير القرآني ألفاظا تدل بمجوع أصواتها على المعنى، وتوحي به إيحاء قويا يجسده ويصوره، وذلك لأن " التركيب في بعض الكلمات المتأتي من صفات الحروف المتضامة ومخارجها كثيرا ما يدل بصفة طبيعية على مدلول تلك الدوال، من ذلك الكلمات التي تحاكي أصواتها دلالاتها..."[٤]. وهذا ما يسمى بإيقاع الوحدات اللغوية المتكاملة[٥].

تأمل قوله Y واصفا حال المتقين في الجنة: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧}) فستجد رابطا قويا بين كلمتي (نَزَعْنَا) و(غِلٍّ)، وهما مركز الآية المعنوي، لأن الغل إذا نزع من صدورهم صاروا إخوانا. وفي انتظام هاتين الكلمتين في آية واحدة جمال موسيقي ومعنوي زاد من فنية الصورة ووضوحها. فأصوات (نزع) تشترك جميعها في صفة الجهر والقوة، وتعني: " نزعت الشيء أنزعه نزعا: قلعته"[٦] وهذا يدل على أن الله Y سينزع "أصل الإحساس بالغل من صدورهم، ولا تكون إلا الأخوة الصافية الودود"[٧]وإن كان الغل في الصدور غائرا.

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٥٣٦ .
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص ٢٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) المسدي، عبد السلام، النقد والحقيقة، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٥.
(٥) انظر: طحان، ريمون، الألسنية العربية ، ج ١، ص ٣١ ، ٣٢ .
(٦) الفيروزأبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت ٨١٧ هـ/١٤٢٩م)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (تحقيق محمد علي النجار)، المكتبة العلمية، بيروت، ج٥، ص٥٣.
(٧) قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص ٢١٤٥.

ومما يلمح في الآية وجه المناسبة الصوتية بين (نَزَعَ) و(غِل)، وبيانه: أن النزع يكون من أسفل إلى أعلى وهذا معنى الاقتلاع. والغل يعني: "الحقد الكامن في القلب، مأخوذ من قولهم: أغل في جوفه، وتغلغل "(١). فالنزع للغل يكون باقتلاعه من القلب. وهذا ما صوره لفظ " غِلٍّ " بحرفيه الغين واللام، فمخرج الغين من الحلق(٢)، وجاء مكسورا ليوحي بغور الغل وتغلغله في القلب، ومخرج اللام يتكون عندما "يعتمد اللسان على أصول الثنايا العليا"(٣) فهو لثوي، وفي انتظام الحرفين في كلمة واحدة، وقد سبقهما النزع والاقتلاع ما يصور خروج الحقد من القلب وقد مر بالحلق، ثم وصل الفم فمجه مجا.

ونلمس قوة الصوت في دلالته على المعنى دلالة بينة في قوله Y آمرا رسوله بتبليغ الدعوة: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤}) بدأت الآية بفعل أمر حروفه تدل بجرسها على معاني القوة والشدة، فالصاد مفخمة، والدال مجهورة انفجارية شديدة، والعين مجهورة، وحال سكونها تزداد جهرا ووضوحا في السمع(٤). ثم إنه فعل أمر وهذا مما يزيد من ثقل إيقاع الكلمة وقوتها. وأقوال المفسرين وإن تعددت في تحديد المعنى اللغوي لأصل الصدع في الآية إلا أن معنى القوة يداخل كل تلك التعريفات، قال صاحب أضواء البيان:" قوله (فاصدع) قال بعض العلماء: أصله من الصدع بمعنى الإظهار، ومنه قولهم انصدع الصبح: انشق عنه الليل... وقال بعض العلماء: أصله من الصدع بمعنى التفريق والشق في الشيء الصلب كالزجاج والحائط.... وعلى هذا القول " (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) أي فرق بين الحق والباطل بما أمرك الله بتبليغه "(٥). والمقصود من ذلك الجهر بالدعوة. ولعل مجد الدين الفيروزأبادي قد أدرك ببصره النافذ، وإحساسه بالفروق التعبيرية الدقيقة بين الأصوات ما في جرس اللفظة من قوة، فقال: " وقوله Y: (فَاصْدَعْ) بِمَا تُؤْمَرُ أي شق جماعتهم بالتوحيد"(٦).

---

(١) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص٤٦٣،٤٦٤.
(٢) القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ١٦٩ .
(٣) السعران، علم اللغة العام، ص١٨٥.
(٤) انظر: السعران، علم اللغة العام، ص ١٢٨ وما بعدها .
(٥) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (خرج أحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ج٣، ص ١٥١، ١٥٢ .
(٦) الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، مادة(صدع)، ج٣، ص ٣٩٤ .

رابعا: ظاهرة محاكاة الأصوات (الأنوماتوبيا).

ومن الظواهر الصوتية التي تجلت في السورة ظاهرة " الأنوماتوبيا " وتعني " تكّون أصوات الكلمة نتيجة تقليد مباشر لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء، وهذا النوع من الكلمات لم يستطع أحد من اللغويين إنكاره، حتى أولئك الذين غالوا في معارضة فكرة الاتصال العقلي بين الأصوات والمدلولات"(١). وقد تجلت هذه الظاهرة في كلمة واحدة في السورة، غير أن تكرارها ثلاث مرات جعل منها ظاهرة أسلوبية استوقفت الدارس.

قال Y:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن **صَلْصَالٍ** مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦}) .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن **صَلْصَالٍ** مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨}).

(قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن **صَلْصَالٍ** مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣}).

والصلصال هو " الطين اليابس الذي يصوت من يبسه إذا ضربه شيء... وأصل الصليل والصلصة واحد، والفرق بينهما أنك إذا توهمت في الصوت مدا، فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة "(٢). ولعل اختيار الصلصال في هذا السياق وروده ثلاث مرات بصوت الصاد المفخم واللام المجهورة مع ترجيع موسيقي (صل ، صل) سبب في إيقاظ السمع وتنبيهه إلى أصل الإنسان ومادته التي خلقه الله Y منها. وهذا هو الغرض الخاص الذي سيقت له قصة آدم في السورة؛ "فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم"(٣). ويقوي هذه الفرضية تكرار (مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) وهذا التكرار التركيبي(٤) يتحرك أثره في محورين: أحدهما " هو محور العلاقات الأفقية مع الكلمات الأخرى، ودور ذلك في إحداث الدلالة القوية، والمعنى المؤثر"(٥) الذي ركز عليه السياق في القصة، وهو أصل آدم ومادته التي تكون منها، فبالصلصال قد تكرم بنو آدم حين نفخ الله Y في آدم من روحه (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩})، وبالصلصال ظهرت طاعة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم حيث طلب منهم السجود له (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠})، وبالصلصال لعن إبليس وطرد إذ تكبر على هذا الصلصال ورأى أنه بناره السمومة خير منه (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥}). إن مركز القصة المعنوي هو هذا الصلصال، فلا غرو إن تكرر.

---

(١) نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص٩٥ .

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان، ج٣، ص١٠٧.

(٣) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٣٧ .

(٤) وهذا ما يوسم بالعادة بـ"محور التركيب". انظر: خليل، الضفيرة واللهب، ص٥٤.

(٥) المرجع نفسه، ص٥٤.

والمحور الثاني هو " محور العلاقات الرأسية، أي إشاعة نوع من التناغم والانسجام بين أجزاء النص المتراكب بعضها على بعض في طبقات صوتية تخدم الصفة الأسلوبية "(١). وهذا ما يلاحظ متجليا في القصة؛ إذ بدأت بذكر الصلصال الذي سيخلق منه آدم ـ عليه السلام ـ، ثم إخبار الملائكة عنه، وامتثالهم أمر الله Y بالسجود لهذا الصلصال المُكرَّم، ثم رفض إبليس السجود متذرعا بأن النار خير من الصلصال. وفي هذا الترتيب من التناسق والانسجام ما يجعل الكلام متحدرا ومتلائما يفضي بعضه إلى بعض في تلاحم وتماسك. وهذا التناسق في التراكيب المتكررة يعطي السرد من ناحية الدلالة معنى التقرير في أصل خلقة الإنسان، وفي الوقت ذاته يضفي عليه وحدة موسيقية شديدة الظهور تتواءم مع الدلالة المتوخاة من الآيات.

خامسا: المقاطع الصوتية.

وقبل البدء بدراسة النماذج، لا بدّ من تعريف محدد لمفهوم المقطع يخدم الدراسة ـ فقد تعددت تعريفات اللغويين المحدَثين له(٢) ـ ولعل من أنسب التعريفات التي تبرز الإيقاع الموسيقي المتكون من العبارة وتتابع مقاطعها، تعريف بسام بركة للمقطع: "أنه نوع بسيط من الأصوات التركيبية في السلسلة الكلامية، بمعنى أنه وحدة صوتية أكبر من الفونيم (الصوت اللغوي) وتأتي مباشرة بعده من حيث الأبعاد الزمنية (في النطق) والمكانية (في الكتابة) "(٣). فهذا التعريف يكشف عن أنواع المقاطع (المفتوحة والمغلقة والقصيرة والطويلة...)(٤) في النص، ثم على الدارس البحث عن دلالتها المعنوية.

ومن أحسن ما جاء من المحسنات الصوتية في المقاطع، الاتزان الإيقاعي في قوله Y: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩}). فإن الآية تأتي متزنة على ميزان بحر المجتث، إذ سكنت ياء (أَنِّي). وبيانه:

(١) المرجع نفسه، ص٥٥.

(٢) للتفصيل في هذه التعريفات انظر: عمر، أحمد مختار، الصوت اللغوي، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢.

(٣) بركة، بسام، علم الأصوات العام أصوات اللغة العربية، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٠، ص ٩٧

(٤) انظر تفصيل النسج المقطعي: خليل، إبراهيم ، في اللسانيات ونحو النص، ط١، دار المسيرة، عمان، ٢٠٠٧، ص ١٦٣ وما بعدها.

نبـئ عبـا / دي أني /أنـا الغـفو / رر ر حيـم

- - ب - / - - - / ب - ب - / - ب - -/

مستفـعلـن / فالاتن (خبن) /متفعلن(إضمار) / فاعلات /

ومع قولنا بالتماثل الإيقاعي المقطعي للآية مع بحر المجتث إلا أن للقرآن الكريم في طبيعة ترتيله الخاصة ما يجعل له إيقاعا متميزا،" فمع الإيقاع الموسيقي لا يحدث في النفس الملل، ولذلك يكون ما في اللغة إيقاعا، والذي في القرآن إيقاع متوازن لا موزون كالشعر"(١). و لعل تجلي الإيقاع الموسيقي على هذا النحو المقطعي المتوازن" يصلح أن يضمن في شعر شاعر، فمن جمال الأسلوب القرآني أن وقع فيه ذلك القدر العظيم من آيات موزونة موسيقية تطمئن إليها الأسماع وتنفذ إلى القلوب "(٢).

إن الوحدة المقطعية في النص القرآني تخضع لنظام مُحكَم؛ لأنها تَرِدُ وفقا لمقتضيات السياق ومتطلبات المقام؛ فإن لكل تركيب معانيَ يحملُها، وسياقات تحمل في طياتها مشاعر وأحاسيس، ولكل ذلك أثر على طبيعة تشكل المقاطع التي تبرز من الإيحاءات والدلالات ما لا يبرزه الصوت المفرد؛ لذا ينبغي تقسيم نسيج آيات سورة (الحِجر) إلى مقاطع صوتية، لنلحظ السمة الأسلوبية والدلالية في المقاطع حيث تتكرر، ثم نعمل على تفسير ذلك بما يتناسب والسياق العام للآيات، فـ " دراسة الأنظمة المقطعية يعد بحق من المباحث المجددة في جوانب الدرس اللساني الحديث، وإنها تقدم خدمات جليلة لتفسير الظواهر اللغوية في ميادين متعددة، البنى الصرفية والصوتية والأسلوبية مما يوجه الدلالة"(٣). إضافة إلى ما تحققه المقاطع من انسجام صوتي في الآيات؛ إذ "ليست الكلمة العربية إلا مجموعة من المقاطع الوثيقة الاتصال التي قد لا تنفصم أثناء النطق، والتي تظل مميزة واضحة في السمع الذي يساعدك بلا شك على تحديد المعنى"(٤).

والتعبير القرآني - في سورة (الحِجر) - يوظِّف المقاطع الصوتية توظيفا فنيا، وبعملية إحصائية للمقاطع وتنوعها (مفتوحة، مغلقة، قصيرة، طويلة...) ومراكز ورودها يتكشف لنا عن فنية هذه المقاطع الصوتية، وعلاقة التشكل المقطعي بالدلالات المتنوعة والسياق، وما تصوره لنا من البعد النفسي لدى المتكلم، ودرجة تأثيرها في المتلقي، فإنه " لما كانت الكلمات تتكون من مقاطع متتابعة، وكان لكل مقطع سماته الصوتية المتميزة، كان ترتيب هذه المقاطع

---

(١) أنيس، موسيقى الشعر، ص ٢٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٢٩ .

(٣) عبد الجليل، عبد القادر، هندسة المقاطع الصوتية، ط١،دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٨، ص ٤٩_٥٠

(٤) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١١١،١١٢.

في الكلمات وتواليها على نسق معين ذا أثر كبير في إحداث أنواع من الموسيقى الداخلية تتناسب والأفكار التي تعبر عنها وتصورها، فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنا أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة، ومن هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لونا من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة والعكس صحيح"(١). ولنأخذ بالدرس من النماذج المقطعية ما يحقق ملمحا أسلوبيا صوتيا.

قال Y:(رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢} ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣}).

رُ / ب ـَ / مـا/ ي ـَ / و ـَ د / د ـُ ل / ل ـَ / ذي / ن ـَ / ك ـَ / ف ـَ / رو/ ل ـَ و / كا / نو / م ـُ س / ل ـِ / مين //

إذا رمزنا للصامت بالرمز:(ص)، وللصائت القصير بالرمز: (ح)، وللصائت الطويل بالرمز(ح ح)(٢)؛ فسيظهر التشكيل المقطعي كالآتي:

ص ح / ص ح / ص ح ح/ ص ح / ص ح ص / ص ح ص / ص ح / ص ح ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح ح / ص ح ص / ص ح ح / ص ح ح / ص ح ص / ص ح / ص ح ح ص //

يلاحظ أن الآية اشتملت على ثمانية عشر مقطعا، بلغ عدد المقاطع الطويلة ستة مقاطع، خمسة منها مفتوحة، وواحد مغلق، والمقاطع القصيرة اثنا عشر مقطعا، ثمانية مفتوحة، وأربعة مغلقة. أي بزيادة واضحة للمقاطع القصيرة بنوعيها(١٢) على المقاطع الطويلة بنوعيها (٦) .

وفي الآية الثانية يطالعنا التشكيل المقطعي بالآتي:

ذر / هم / يأ / ك ـُ / لو / و ـَ / ي ـَ / ت ـَ / مت / ت ـَ / عو / و ـَ / يل / هـ ـِ / هـ ـِ/ مل / أ ـَ/ م ـَ / ل ـُ / ف ـَ/ سو / ف ـَ / يع / ل ـَ / مون //

ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح / ص ح /ص ح ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح ح ص/ /

(١) نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص ١٠٩.
(٢) سنرمز للمقطع القصير المفتوح: ص ح، و القصير المغلق: ص ح ص. و للمقطع الطويل المفتوح: ص ح ح، والطويل المغلق: ص ح ح ص.

نلاحظ على هذه الآية أنها تشكلت من خمسة وعشرين مقطعا، بلغ عدد المقاطع الطويلة ثلاثة مقاطع، اثنين مفتوحين، وواحدا مغلقا. وبلغ عدد المقاطع القصيرة اثنين وعشرين مقطعا، أربعة عشر مفتوحا، وثمانية مغلقة. أي بزيادة كبيرة جدا للمقاطع القصيرة بنوعيها (٢٢) على المقاطع الطويلة بنوعيها (٣) .

فكل من الآيتين قد غلبت فيه المقاطع المفتوحة ولاسيما القصيرة (طويل مفتوح: ٧، قصير مفتوح: ٢٤) وهذا ما يجعل من الآيتين بنية واحدة متماسكة على المستوى الصوتي يقرر التماسك المعنوي بينهما؛ إذ جاءت الآية الأولى واصفة للحال التي سيؤول إليها الكافرون من الندم الشديد والحسرة على ما فرّطوا في جنب الله Y؛ إذ لم يكونوا مسلمين، فتتابعت المقاطع القصيرة المفتوحة بشكل واضح في مركز الآية المعنوي (الذين كفروا) ص ح ص / ص ح /ص ح ح / **ص ح / ص ح / ص ح / ص ح/** ص ح ح/. وجاءت الآية الثانية مبينة أن سبب كفرهم إنما هو الأمل في هذه الدنيا والركون إليها، فتتابع المقطع القصير المفتوح في هذا المركز المعنوي ليشكل عنصر ربط وتكامل بين الآيتين (يلههم الأمل فسوف) ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ **ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح /** ص ح ص / ص ح //.

وغلبة المقاطع القصيرة المفتوحة بهذا الشكل البارز يشكل عدولا صوتيا - " فإن مقاطع اللغة العربية تميل إلى المقفلة، ويقل فيها توالي المقاطع المفتوحة "[(١)] - مما تطلب منا تفسيرا وتوضيحا.

ولعل مما يعين على فهم ما تعبر عنه هذه الكثرة من المقاطع القصيرة المفتوحة ما قاله البيضاوي: "(ويلههم الأمل) ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد(فسوف يعلمون) سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه"[(٢)]. وفي هذا تقريع للإنسان السادر في غلوائه، الغافل عن مصيره، عبَّرت عنه هذه المقاطع المفتوحة القصيرة التي تتسم بالسرعة في الأداء أصدق تعبير، فالإنسان مشغول في توقعه طول الأجل، وما العمر إلا لحظات مقضية، وما زمان اللهو واللعب في هذه الدنيا إلا كلمح البصر أو هو أسرع، ثم العودة إلى عالم الغيب والشهادة حيث الحساب والعقاب. ولعل في عدول التعبير القرآني عن كلمة (ربّما= ص ح ص/ ص ح / ص ح ح /) بتشديد الباء - وهي الأكثر في لغة العرب[(٣)]- إلى تخفيفها حيث السرعة في

---

(١) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١١٣.
(٢) البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد(ت ٦٩١هـ/ ١٣٠٣م)، أنوار التنزيل و أسرار التأويل، (تقديم محمد المرعشلي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨، ج١، ص ٢٠٦.
(٣) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج ٣، ص ١٢١ .

نطقها(ص ح / ص ح / ص ح ح)[١] ما يشي بسرعة انقضاء الأمل. وقد شارك في تصوير هذه السرعة تتابع صوت الهاء ـ وهو حرف احتكاكي مهموس رخو[٢] ـ في (يلههم).

أما عن المقاطع المفتوحة الطويلة(ربما، كفروا، كانوا، يأكلوا، يتمتعوا)، والمقطعين المغلقين الطويلين وهما فقط في الفاصلة(مسلمين، يعلمون) فإنها توحي بنوح الندم الشديد الذي يخرج مع زفرات الكافر وهو يتمنى أن لو كان مسلما، هذه الزفرات التي كانت من قبل أنفاسا ممدودة في حب الدنيا والتمسك بها.

ويتجلى التوزيع المقطعي بشكل متعادل في قوله Y: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤}).

وَ / ل َ / قد / ع َ / لم / نل / مس / تق / د ِ / مي / ن َ /

وَ / ل َ / قد / ع َ / لم / نل / مس / تأ / خ ِ / ري / ن َ //

وهذا التقابل المقطعي (عددا ونوعا) ينسجم والتقابل في المعنى. يقول الإمام الطبري:" إن الله قد علم ما مضى من الخلق وأحصاهم وأحصى أعمالهم، وهو يعلم الأحياء منهم، ويعلم من سيأتي فيما بعد منهم، يعلم أعمال كل الخلق من خير أو شر، ويحصي ذلك، ويحشرهم ليجازيهم بأعمالهم"[٣]. إن في الآية تأكيدا على أن علم الله Y للماضي والمستقبل على حد سواء؛ فتكرر قوله Y: (ولقد علمنا) في بداية كل مقطع.

ثم تأتي المقاطع متكررة بالتساوي لتزيد من شأن التأكيد على أنه لا يعزب عن علم الله شيء في ماض أو مستقبل. وفصل التعبير القرآني بين المقطعين بـ (منكم) وقد تركبت من مقطعين قصيرين مغلقين (ص ح ص/ ص ح ص) للدلالة على أن الخطاب موجه لكم أيها المتلقون، فانتبهوا.

---

(١) قرأ نافع وعاصم بالتخفيف، وقرأ الباقون بتشديدها، وهما لغتان. انظر: المرجع نفسه، ج ٣، ص ١٢١.
(٢) السعران، علم اللغة العام، ص ١٤٨.
(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط١، (هذبه وقربه الدكتور صلاح الخالدي)، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، ١٩٩٧، ج٤، ص٦٣٢.

وانسجم التشكل المقطعي في أسلوب الحوار بين الله Y وإبليس الرجيم، وكان له تشكلاته المختلفة التي ناسبت المقام. ولندرس منه بدايته.

قال Y : (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢} قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣} قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥}).

بدأ الحوار بسؤال الله Y إبليس عن رفضه السجود(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢}) فتشكلت المقاطع الصوتية كالآتي: ص ح ح / ص ح / ص ح ح / ص ح ص / ص ح ح / ص ح / ص ح ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح ص/ ص ح ح / ص ح / ص ح ح / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ح / ص ح / ص ح ح ص //

بلغ عدد المقاطع المفتوحة الطويلة (٧) والقصيرة (٨)، ثم برزت المقاطع المغلقة القصيرة وعددها ثلاثة فقط في المراكز المعنوية للجملة، أولها عند إبليس:(يا إبليس): ص ح ح / **ص ح ص** / ص ح ح/ص ح// وهو المخاطَب. وثانيها: (ألا تكون)(**ص ح ص** / ص ح / ص ح ح / ص ح) وتركز المقطع المقفل على أداة النفي لأنها المركز الرئيس في الحوار، وعليها مدار الكلام، فلولا رفض إبليس السجود لما كان ما كان، فكان في مجيئها مقفلة بين المقاطع المفتوحة ما يسترعي الانتباه. وثالثها: (الساجدين) **(ص ح ص** / ص ح / ص ح / ص ح ص) وهو الفعل الذي عصى إبليس به ربه Y.

وجاءت المقاطع الثلاثة موزعة بالترتيب في أول الجملة ووسطها وآخرها، لتلقي ظلالا من الغضب على المشهد، ولتكون بداية تصعيد صوتي. ويلحظ أن توزيع المقاطع الطويلة المفتوحة (قا / يا / لي / ما / لا / كو / سا / ين) أبقى الإيقاع بطيئا وأفضى بموسيقاه رهبة وترقب.

ومن جانب آخر، تصور لنا المقاطع نفسية إبليس حين أجاب (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣}).

ص ح ح/ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ص ح ص/ ص ح/ص ح ص/ ص ح/ص ح/ ص ص ح/ ص ح/ص ح/ص ح ص/ص ح/ص ح ص/ص ح/ص ح ح/ص ح ص/ص ح ص/ ص ح ح/ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح / ص ح / ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ح ص//

تشكلت الآية من سبعة وعشرين مقطعا، لم يكن من حظ الطويل إلا أربعة مقاطع. وباقي المقاطع كانت قصيرة ما بين المغلق (١١مقطع) والمفتوح (١٢مقطع)، ولعل في غلبة المقاطع القصيرة ما يدل على حالة الاضطراب والقلق؛ فقلة المقاطع الطويلة تتطلب من المتكلم أن يكون مطمئنا حتى يمد في كلامه. ولذا غلبت المقاطع القصيرة بنوعيها.

ومما يشكل ظاهرة بارزة تتابع المقاطع القصيرة المفتوحة بشكل سريع عند تعليل إبليس عدم سجوده لآدم كونه بشرا (لم أكن لأسجد لبشر) (ص ح ص / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح ص **/ ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح /** ص ح ص) فإنها تشي لنا بأن إبليس يعلم أن الله Y أمره بالسجود لآدم البشري، وأنه ما على المأمور إلا أن يمتثل، فسارع في التخلص من هذا التعليل غير المقنع. ولعل الجناس الاستهلالي بين كلمتي (لِأسجد، لِبشر) مع الكسرة على (اللام) زاد من سرعة الإيقاع، بما يعزز ما ذهبنا إليه.

ولكننا نجد بطئا في الإيقاع المقطعي عند اعتراف إبليس أن الله Y هو خلق آدم، فيبرز المقطع الطويل المفتوح؛ لأن في اعترافه هذا شهادة بإلوهية الله Y فشكلت له هذه الشهادة شيئا من الاطمئنان مدّ به نفسه (خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)

(ص ح / ص ح ص / ص ح / **ص ح ح /** ص ح ص / ص ح ص / **ص ح ح /** ص ح ص / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ح ص) .

ثم تصور لنا المقاطع صورة إبليس وقد حل عليه غضب الله Y (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥})

ص ح ح/ ص ح / ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ح / ص ح/ ص ح ص / ص ح /ص ح / ص ح / ص ح ح ص// ص ح/ص ح ص/ص ح/ص ح/ص ح ص/ص ح ص/ص ح ص/ص ح/ ص ح / ص ح / ص ح ح / ص ح ص / ص ح ص /ص ح ص/ ص ح ح ص//

بلغ عدد المقاطع ستة وعشرين مقطعا، كان للمقطع القصير المغلق دلالته المعنوية من حيث وروده متتابعا على نحو شكل ملمحا صوتيا. فقد جاء متتابعا في مطلع الآية ليجسد لنا حالة الأمر الملفعة بالغضب الشديد (فاخرج منها) (**ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص /** ص ح ح)، ثم تتابع مرة أخرى (إن عليك اللعنة إلى) (ص ح ص / ص ح / ص ح / **ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص /** ص ح / ص ح **/** ص ح/ ص ح ح) ليكتمل مشهد الخروج والطرد، الطرد من الجنة، والطرد من رحمة الله Y. ومما زاد من فنية الصورة ما أضافه

المقطع الطويل المفتوح من دلالات وإيحاءات، فقد استطاع في الصورة الأولى (خروج إبليس من الجنة) أن يرسم مسافة مكانية بعيدة للجنة عن إبليس، اقرأ (فاخرج **منها**) ولا تحرك لسانك لتعجل به، ترى كيف أدى المقطع الطويل المفتوح (ص ح ح) في(منها) (ص ح ص/ **ص ح ح**) دوره في إبعاد الشقة المكانية بين إبليس والجنة. وفي الصورة الثانية (صورة خروج إبليس من رحمة الله Y) (وإن عليك اللعنة **إلى**)(ص ح / **ص ح ح**) استطاع أن يرسم مسافة زمانية بعيدة لرحمة الله Y عن إبليس. وليس يخفى أثر صوت الألف الأشد امتدادا والأوسع مخرجا(١) في رسم الصورة .

ويبرز التشكل المقطعي الذي يكشف عن حالة نفسية في قوله Y على لسان إبراهيم - عليه السلام -: (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ{٥٤}). تكونت الآية من المقاطع الآتية:

ص ح ح / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح / ص ح ح / ص ح ح / ص ح / ص ح ح/ ص ح ص / ص ح ص / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح ص / ص ح / ص ح ح ص //

بلغ عدد المقاطع خمسة وعشرين مقطعا، شكلت المقاطع القصيرة المفتوحة الجزء الأكبر منها حيث وصلت إلى أربعة عشر مقطعا، وكان في ظهورها المتتابع أن شكل بروزا صوتيا يجسد نفسية إبراهيم - عليه السلام - حين تلقيه البشارة، فتساءل متعجبا من كمال قدرة الله Y، جذلانا بما أنعم الله عليه من الولد، حتى بدا من فرط فرحته واستعجاله بالسؤال عن سر هذه البشرى وكأنه منكر لها، وما هو بمنكر (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ{٥٦}) كل هذا يتمثل في تلك السرعة الإيقاعية للمقاطع القصيرة المفتوحة المتتابعة وبما يحمله الاستفهام التعجبي من معنى.

وتأمل سرعة الإيقاع المقطعي الذي أحدثته المقاطع القصيرة المفتوحة، وقد ساعد في تتابعها وإبرازها الحذف الذي وقع على ألف ما الاستفهامية؛ إذ سبقت بحرف الجر الباء(بم). يقول Y:(.... مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ{٥٤}) (ص ح ص / ص ح / ص ح / ص ح ص / ***ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح / ص ح*** / ص ح ص / ص ح / ص ح ص //

مع ملاحظة أن المقاطع القصيرة المفتوحة بدأ تتابعها عند قوله: (الكِبَرُ) حيث تجلت قدرة الباري

---

(١) انظر : ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني(ت ٣٩٢هـ / ١٠٠٤م)، سر صناعة الإعراب، ط١،(تحقيق مصطفى السقا وآخرون)، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤، ج١، ص ٧٠ .

سبحانه، فكان في إظهار هذه الكلمة بهذا التتابع سريع الإيقاع من بين مقاطع الآية تلويح إلى تلك القدرة الربانية .

ولا نستطيع الانتقال من الحديث عن المقاطع إلى موضوع آخر هو الفاصلة القرآنية دون أن ننبه على ظاهرة النبر التي تجلت في قوله Y مخاطبا ملائكته: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي **فَقَعُواْ** لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩}).

فالنبر" من الظواهر الصوتية فوق المقطعية، وسميت بذلك لكونها لا وجود لها مستقلة عن الكلام، ولا يمكن التعبير عنها أو تمثيلها عن طريق الكتابة إلا برموز غير لغوية "(١). واللغة العربية لغة غير نبرية؛ لذا فإنه من النادر جدا أن يكون للنبر أثر في معنى الكلام العربي(٢)، ولعل النبر الذي على المقطع الثاني في قوله Y: (فقعوا) من هذا القليل النادر؛ إذ له دلالته الخاصة على المعنى، ولو تغير النبر لتغير المعنى. وبالنطق بالكلمة مع التحليل المقطعي لها يتكشف لنا ذلك، فالكلمة تتكون من مقطعين حال حذف الفاء الواقعة في جواب الشرط: "قعوا " = / ص ح / **ص ح ح** // فيكون النبر على المقطع الثاني منها(عو = ص ح ح) إذ عنده " ازدياد النشاط في جميع أعضاء النطق "(٣). وهي بمعنى اسجدوا من(وقع) أي سقط(٤). أما وقد اتصلت الفاء بها فصار لزاما أن يتغير النبر حتى لا يفسد المعنى، فانتقل إلى المقطع الثاني (فقعوا) ح ص / **ص ح** / ص ح ح //. ولو بقي النبر على المقطع الثالث (عو) لسبق إلى الظن أن الفاء الواقعة في جواب الشرط حرف مبنى، وأن جذر الكلمة (فقع) وما هذا بصحيح.

---

(١) خليل، في اللسانيات و نحو النص، ص ٦٣.
(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٦٥ .
(٣) وهذا ما عرف به إبراهيم أنيس النبر . انظر: الأصوات اللغوية، ص ١٦٩.
(٤) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، ج١٣، ص ٤٥ .

سادسا: الفواصل القرآنية.

ومما يجب التوقف عنده في الدراسة الصوتية للقرآن الكريم فواصل آياته، على تباين درجاتها واختلاف أنماطها، إذ إنها تمثل إيقاع البنية العامة، هذا الإيقاع الذي يتعلق بتوازن الصيغ وانسجامها مع مراعاة عباراتها مجتمعة، وهو ما يقابل السجع.

وقد آثرتُ مصطلح " الفواصل القرآنية " على مصطلح " السجع " وإن كان بينهما عموم وخصوص؛ لأن مصطلح " الفاصلة " ـ في رأيي ـ أقرب من حيث معناه إلى طبيعة النص القرآني من مصطلح السجع الذي "حمل عبر تاريخه الطويل ظلالا من المعاني وسمته بالتكلف والنفرة منه، ولأنه كان سمة مميزة لحديث الكهان قبل الإسلام "(١).

ولعل أفضل تعريف للفاصلة القرآنية ـ بعيدا عن اللجج في الجدل، واللدد في الخصومة حول هذين المصطلحين ـ هو أن الفاصلة " آخر كلمة في الآية، وهي حروف متشاكلة في المقاطع "(٢).

وقبل الشروع في ذكر نماذج من الفواصل وأنواعها، لعله من المفيد الإشارة إلى أن تلمس القيمة الفنية للسجع ـ والفاصلة جزء منه ـ قد أدركه البلاغيون والكتّاب على حد سواء. يقول أبو هلال العسكري في كتابه (الصناعتين): إن السجع " إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه "(٣). ومما رواه الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) أنه " قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرّقاشي لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط وهو

---

(١) نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص ١١٣. و ينظر في تفصيل إطلاق أحد هذين المصطلحين على هذه الظاهرة البديعية الصوتية :
ـ الرماني، أبو الحسن علي بن علي(ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م)، والخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم(ت ٣٨٨هـ/ ١٠٠٠م)، والجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن(ت ٤٧١هـ/ ١٠٨٣)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط٢، (تحقيق وتعليق: محمد خلف الله و الدكتور محمد زغلول سلام)، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨، مجموعة ذخائر العرب(١٦)، ص ١٨٧ و ما بعدها .
ـ بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٣٥ وما بعدها .
(٢) المرسي، كمال الدين عبد الغني، فواصل الآيات القرآنية، ط١، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص ١١ .
(٣) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل(ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٧م) ، الصناعتين الكتابة والشعر،ط١، (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم) دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٥٢، ص ٢٦١ .

أحق بالتقييد "[١]. فلا غرو في أن يعمد القرآن الكريم في بيانه الأعلى إلى هذه الوسيلة البلاغية البديعة، ولاسيما في سوره المكية التي تمثل بدايات نزول القرآن الكريم.

ولعل أول من تكلّم عن فنية الفاصلة القرآنية أبو زكريا الفراء في كتابه (معاني القرآن)، إذ نراه يتخذ من رعاية الفاصلة وسيلة ترجيح لبعض القراءات القرآنية، وكان يرى أن التعبير القرآني قد يلجأ إلى الحذف إذا عرف المعنى ودل عليه دليل سابق؛ لتتفق رؤوس الآيات، يقول الفراء: و"ليس من العيب الحرص على الرنة الموسيقية، وقد يوجد فيها(الفاصلة) الحذف أو الإفراد وغيرها من الأحكام"[٢]. وغير ذلك من آرائه في الفاصلة التي أغنانا عن استخراجها والبحث فيها الدكتور أحمد نحلة، بل زاد خيرا أن ناقش بعض من عارض الفراء فيما ذهب إليه، منتصرا له[٣]. فإنه ومع كون سور القرآن الكريم منزلة على وفق المناسبات، وأن آياتها رتبت ترتيبا وقفيا، إلا أن منعم النظر في التعبير القرآني يجده يراعي اتفاق الفواصل، فيؤثر لفظا على لفظ، أو يقدم ويؤخر في الكلام، أو يحذف وينقص منه.

ونحن نتلمس حرص التعبير القرآني في سورة (الحِجر) على مراعاة الفواصل؛ حيث عمد إلى أن تظل رؤوس الآيات متفقة في المقطع الأخير منها، وهو المقطع الطويل المغلق (ص ح ح ص)، وأن يكون حرف الروي النون أو الميم أو اللام، مسبوقا بأحد حرفي المد الياء أو الواو، فتوزعت على النحو الآتي:

ـ حرف الروي النون، وكان له النصيب الأكبر حيث بلغ عدد الفواصل المنتهية به (٨١) مرة، سبقه حرف المد الياء(ين = ص ح ح ص) (٤٩) مرة، وحرف المد الواو(ون = ص ح ح ص)(٣٢) مرة.

ـ حرف الروي الميم (١٦) مرة، سبقه حرف المد الياء (يم = ص ح ح ص)(١١) مرة، وحرف الواو (وم = ص ح ح ص)(٥) مرات .

ـ حرف الروي اللام مرتين مسبوقا بحرف المد الياء (يل = ص ح ح ص).

---

(١) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت ٢٥٥هـ/ ٩٧٧م)، البيان والتبيين، (تحقيق درويش جويدي)، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت ٢٠٠٣، ج ١، ص ١٧٥.

(٢) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد(ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، معاني القرآن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ج٣، ص ٢٧١ .

(٣) انظر: نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص ١٢٦ ـ ١٣٠.

ومن المواطن التي حرص التعبير القرآني فيها على مراعاة الفاصلة، قوله Y: (مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥}). إذ ورد فعل التأخير على صيغة جمع المذكر محمولا على المعنى مع التغليب، وقد حذف متعلقه وهو الجار والمجرور(عنه).

ومن أبرز الظواهر التي تؤكد ذلك الحرص في اتفاق المقطع الأخير للفواصل ما نلحظه في أسلوب الاستثناء، حيث يكون الفصل في تركيب الجملة الاستثنائية، المستثنى منه في آية والمستثنى في الأخرى حفاظا على موسيقى المقطع الأخير (ين، ون، يم، وم، يل) فرعاية الفاصلة " لون من الجمال الموسيقي المؤثر، وهو مما يقصد إليه النظم الكريم أخذا بالآذان والقلوب "(١). يقول الله Y:

ـ (وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ* فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨}) فالفاصلة الأولى(رجيم) مختومة بـ (يم) مع أن المستثنى وهو الاسم الموصول (مَن) في الآية التالية.

ـ (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠} إِلاَّ إِبْلِيسَ* أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣١}) وتظل الفواصل محتفظة بموسيقاها المتناسقة فأخرت المستثنى (إبليس) ولم تجعله رأسا للآية، بل ختمتها بـ (أجمعون) ففيها الواو والنون.

ـ (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ* مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠}) و(أجمعين) يتحقق فيها الاتساق الموسيقي للفواصل فتأخر المستثنى(عبادك) للآية التالية.

ـ(قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ* إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ* قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠}) وفي هاتين الآيتين يظهر كيف أن التعبير القرآني يعمد لإبقاء القاعدة الصوتية للفواصل مضطردة فيجعل المستثنى في درج الآيات مادامت لا تتفق وموسيقى الفواصل، لكن لاحظ كيف يأتي الاستثناء متصلا في آية واحدة إذا لم يختل البناء العام للفاصلة، يقول Y: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ* اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢})(٢).

ومن مواطن مراعاة الفاصلة، استخدام التعبير القرآني من أسماء يوم القيامة ما يبقي على القاعدة العامة للفواصل، مع ما في ذلك من تفنن في القول. قال Y: (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ

---

(١) الخضري، محمد الأمين، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، مكتبة وهبي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٣٢.

(٢) هذا الرمز (*) يشير إلى المستثنى الذي يتم تركيب الاستثناء عنده.

الدِّينِ{٣٥} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٣٧} إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٣٨}).

أما الاسم الأول (الدِّين) فقد جاء مختوما بما يتوافق والفواصل(ين = ص ح ح ص)، وفي الاسم الثاني وهو(البعث) فقد اشتق التعبير القرآني منه الفعل المضارع مرفوعا على وزن الأفعال الخمسة(يبعثون)(ون = ص ح ح ص)، وفي المرة الثالثة كان وصف يوم القيامة بما يبقي على سلامة الوزن (الوقت المعلوم) (وم = ص ح ح ص) كل هذا التوافق في " الإيقاع ذي التطريب والترنم مما يسجل بعدا وظيفيا بينا في الأداء والتأثير، وبلوغ المقاصد والغايات"(١).

ومن نماذج التقديم والتأخير في مراعاة الفاصلة ما ورد في قوله Y: (فلما جاء آل لوط المرسلون) فقدم المفعول وأخر الفاعل، بخلاف الأصل في ترتيب الجملة (وجاء المرسلون آل لوط) وذلك كي لا يحدث خلل في البنية الموسيقية التي قامت عليها السورة في الفواصل، وإنما" الفائدة في الفواصل القرآنية دلالتها على المقاطع، وتحسينها الكلام بالتشاكل"(٢). ولا شك أن في التقديم والتأخير تحقيق لمعنى ما، نذكره في مبحث التقديم والتأخير من الفصل الثالث؛ إذ فواصل القرآن" كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني، فالفاصلة حرة موسيقيا مقيدة بالمعنى"(٣). وهي تحتفظ دائما بإحدى صور التوافق والانسجام الصوتي مع الفواصل السابقة واللاحقة فتشكل إيقاعا جميلا.

ومن الآيات التي لازمها الحذف في الفواصل لتظل " شاجية النغم، حلوة الجرس، عذبة الرنين، تطرب بلفظها كما تطرب بمعناها، ليتم لها الحسن من جميع جهاته "(٤) ما جاء في قوله Y: (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ{٥٤}) فقد حذف البيان القرآني المفعول به من (تبشرون) وأثبت نون الرفع. وهذا الحذف مما تجوزه اللغة؛ إذ يعلم المفعول به من السياق. قال ابن مالك : "وحذف ما يعلم جائز كما ...."(٥).

---

(١) عبد الجليل، هندسة المقاطع الصوتية، ص ٣٥٧.
(٢) محيي الدين، رمضان، وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٢ ص ٥٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٥٠ .
(٤) عامر، فتحي أحمد، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٢١٦.
(٥) ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله العقيلي الهمداني(ت ٧٦٩هـ/١٣٨١م)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ومعه (كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل لمحمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٢٢٦.

وحُذف المفعول به كذلك في قوله Y على لسان لوط ـ عليه السلام ـ مخاطبا قومه: (وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ{٦٩}). وذلك لتتوافق رؤوس الآيات، ولعلة نذكرها في مبحث الحذف من الفصل الثالث.

ومن أهم سمات الاستخدام القرآني للفواصل ما يأتي:

١. التوازي.

ونعني به " ما اتفقت فيه الأعجاز في حرف الروي مع اتفاق الوزن "[(١)] ويكون ـ تارة ـ بإعادة الفاصلة نفسها، لتحمل معها من التوافق الصوتي بإعادة القالب وتكرار حرف الروي موسيقى رنانة، تثري التعبير، وتنشط النفس لها، إضافة إلى تأكيد المعنى الذي تتضمنه الفاصلة.

قال Y: (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠} إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣١} قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢}).

ومما وردت فيه الفواصل متفقة الأواخر في الوزن والروي قوله عز وجل:(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩} وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{٥٠}). وفي هذا التوازي الموسيقي ما يشعر باجتماع الرجاء والخوف، والأنس والهيبة. وأن العباد " بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطا "[(٢)].

ومن التوازي قوله Y: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦} وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧}) وجاء هذا التوازي بعد سابقه وقد فصل بينهما التعبير القرآني بست وثلاثين آية، إلا أنه أبقى خيطا نسجهما نسجا، موسيقى ومعنى. وبيانه أن التوازي في قوله Y (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩} وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{٥٠}) مفتتح لسرد قصص الأقوام التي أهلكها الله Y لما كذبوا الرسل عليهم السلام، وهي قصة قوم لوط وقصة أصحاب الأيكة وقصة ثمود، ـ وتوزعت على (٣٦) آية لاحقة ـ ثم كان التوازي في مختتم السرد، وافتتاح موضوع آخر(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦} وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧})(الرحيم، الأليم/ العليم، العظيم). بمعنى أن تلك القصص قد حُدَّت بفواصل متوازية، وفي هذا ظاهرة أسلوبية صوتية تدلل على تماسك النص بموسيقاه ومعناه.

---

(١) العلوي، المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن علي(ت٧٥٤هـ/١٣٦٦م)الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب الخديوية، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤، ج٣، ص ١٨.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص ١٣٤ .

ولعل مما يعضد هذه الفرضية الصوتية في ترابط النص أن ننظر في قوله Y(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{٨٥}) ـ وهي الآية السابقة للتوازي الذي ختم به سرد القصص ـ لنعلم أن "هذه الجملة صالحة لأن تكون تذييلا لقصص الأمم المعذبة (التي وردت في الآيات الـ(٣٦) السابقة) ببيان أن ما أصابهم قد استحقوه، فهو من عدل الله بالجزاء على الأعمال بما يناسبها... وهذا التأويل يظهره موقع الآية عقب ذكر عقاب الأمم التي طغت وظلمت، فإن ذلك جزاء يناسب تمردها وفسادها"(١). ثم قال Y: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦}) وهذه الآية تذييل لسابقتها، أي أن الله Y "هو الذي خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم سبحانه أن الصفح الجميل اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح "(٢) وهنا تشكل الآيات وحدة موضوعية واحدة، ينتقل السياق بعدها إلى الحديث عن القضية الأكبر في السورة، مصدر القرآن العظيم وموقف المشركين منه، فيأتي بآية تشكل فاصلة متوازية مع الآية السابقة (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧}) ليظل التماسك الصوتي والمعنوي قائما في النص وإن انتقل التعبير القرآني من مبحث لآخر. ومن الفواصل المتوازية قوله Y:

ـ (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧}).

ومما يعد من المحسنات البديعية الصوتية التوازي في الفواصل الداخلية، نحو قوله Y:

ـ(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤}).

ـ(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{٧٤}).

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٤م، ص ٧٥.

(٢) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ١٣م، ص ٧٨ .

٢. التوازن.

ونعني به " ما اتفقت الأعجاز فيه في الوزن دون حرف الروي"[١]. وبه يتحقق الثراء الموسيقي العذب حيث المراوحة في أنواع السجع بين متواز وموزون. فـ" اعتياد الأذن على نهاية صوتية واحدة لكل قرينة قد يفقدها عنصر المفاجأة التي توقظ النفس وتنبه الذهن"[٢]. تأمل هذا التوزيع الدقيق للفواصل.

قال Y: (وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨} وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١} وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢})

وبعد التأمل نجد الفواصل قد توزعت توزيعا دقيقا على النحو الآتي:

رجيم، مبين: فاصلتان متوازنتان متتابعتان. ثم نجد الفواصل وقد توزعت بانتظام يحقق ذلك القدر من الثراء الموسيقي، فلا تتعود الأذن نمطا مألوفا تقل معه متعة القارئ أو السامع، فتشعر النفس بالسآمة والملل. انظر كيف رتبت الفواصل:

موزون ـــ فاصلة متوازنة.

برازقين ــــــ فاصلة متوازية.

معلوم ـــ فاصلة متوازنة.

بخازنين ــــــ فاصلة متوازية.

ومن التوازن قوله Y: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{٨٥} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦}).

---

(١) العلوي، الطراز، ج٣، ص ١٨.

(٢) نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص ١٣٢.

٣. التطريف.

ونعني به: "ما اتفقت فيه الأعجاز في الروي دون الوزن "[(١)] وهذا كثير سورة (الحِجر). ونلمح معه ظاهرة خليقة بالملاحظة والرصد في استخدام القرآن لهذه السمة في الفواصل وهي (التطابق المقطعي)، أو ربما وقع خلاف بينها في مقطع واحد؛ ليتحقق التنوع النغمي وإن اختلف الوزن. ومن ذلك قوله Y: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢} ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣}) يلاحظ البلاغيون أن القرينتين تنتهيان بلفظين مشتركين في الروي دون الوزن، ونزيد عليهم أن التعبير القرآني قد حقق في هذا النمط لونا من التناسب أو التطابق المقطعي. فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى متفقة واللفظة الأخيرة من القرينة الثانية على النحو الآتي:

مسلمين:(مُس ص ح ص) (ل ـِ ص ح)(مين ص ح ح ص)(قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق).

يعلمون : (يَع ص ح ص) (ل ـَ ص ح) (مون ص ح ح ص)(قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق).

ومن مثل هذه المطابقة التامة ما نجده في قوله Y: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{١٢} لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣}).

فالفواصل تتألف من أربعة مقاطع:

قصير مقفل + قصير مقفل + قصير مفتوح + طويل مقفل.

الأولين: أل ص ح ص / أو ص ح ص / و ـَ ص ح / لين ص ح ح ص //

يستهزئون: يس ص ح ص / ته ص ح ص / ز ـِ ص ح / ئون ص ح ح ص//

المجرمين: أل ص ح ص / مج ص ح ص / ر ـِ ص ح / مين ص ح ص //

الأولين: أل ص ح ص / أو ص ح ص / و ـَ ص ح / لين ص ح ح ص //

وقد وظفت الآيات هذا اللون من التشابه المقطعي على نحو مرتب منسق حيث تتابعت الفواصل فاصلتين فاصلتين في قوله Y:

---

(١) العلوي، الطراز، ج٣، ص ١٩.

- (قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠} فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{٦١} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٦٢} قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣})

مجرمين: مج ص ح ص / ر ـِ ص ح / مين ص ح ح ص //

قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق

أجمعين: أج ص ح ص / م ـَ ص ح / عين ص ح ح ص //

قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق

....

الغابرين : أل ص ح ص / غا ص ح ح / ب ـِ ص ح / رين ص ح ح ص //

قصير مغلق + طويل مفتوح + قصير مفتوح + طويل مغلق.

المرسلين: أل ص ح ص / مر ص ح ص / س ـَ ص ح / لين ص ح ح ص //

قصير معلق + قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق.

ونلاحظ هنا اختلافا في المقطع الثاني، ففي الفاصلة الأولى طويل مفتوح، وفي الثانية قصير مغلق.

....

منكرون: من ص ح ص / ك ـَ ص ح / رون ص ح ح ص //

قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق

يمترون: يم ص ح ص / ت ـَ ص ح / رون ص ح ح ص //

قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق

ومن الإعجاز في التعبير القرآني أن تتطابق المقاطع في الفواصل بما يشكل انضباطا صوتيا ومعنويا؛ فقد اتفق الفعل المضارع بمقاطعه مع اسم الفاعل، ومعلوم ما بينهما من المناسبة المعنوية. وذلك في قوله Y: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ{٦٥} وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ{٦٦}).

تؤمرون : تؤ ص ح ص / م ـَ ص ح / رون ص ح ح ص // (فعل مضارع)

قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق

مصبحين: مص ص ح ص / ب ـِ ص ح / حين ص ح ح ص //(اسم فاعل)

قصـير مغلق + قصير مفتوح + طويل مـغلق

وقوله Y: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ{٧٢} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ{٧٣})

يعمهون: يع ص ح ص / م ـَ ص ح /هون ص ح ح ص // (فعل مضارع)

قصـير مغلق + قصير مفتوح + طويل مـغلق

مشرقين: مش ص ح ص / ر ـِ ص ح / قين ص ح ح ص // (اسم فاعل)

قصـير مغلق + قصير مفتوح + طويل مـغلق.

ومن التطريف الذي تطابقت مقاطعه قوله Y :

ـ (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣})

أجمعين: أج ص ح ص / م ـَ ص ح / عين ص ح ح ص //

قصـير مغلق + قصير مفتوح + طويل مـغلق

يعملون: يع ص ح ص / م ـَ ص ح / لون ص ح ح ص //

قصـير مغلق + قصير مفتوح + طويل مـغلق

٤. الترسل .

ونعني به "عدم التقيد بوزن ولا روي في الفواصل"[١]، وهو قليل جدا في السورة، ولكن البيان القرآني الأبلغ لا يتركه عاطلا دون تحقيق قدر كبير من الانضباط الموسيقي يتمثل في إتقان نظم المقاطع. تأمل مقاطع الفواصل في قوله Y: (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥} وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦} وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{٢٧}).

عليم: ع َ ص ح / ليم ص ح ح ص // قصير مفتوح + طويل مغلق

مسنون: مس ص ح ص / نون ص ح ح ص // قصير مغلق + طويل مغلق

السموم: أس ص ح ص / س َ ص ح / موم ص ح ح ص // قصير مغلق + قصير مفتوح + طويل مغلق .

يلاحظ أن التعبير القرآني عمد إلى التصعيد الموسيقي؛ فالفاصلة الأولى (عليم) تتألف من قصير مفتوح + طويل مغلق، ثم الفاصلة الثانية (مسنون) وقد زيد على المقطع القصير منها صامت فصار قصيرا مغلقا، إلا أن الفاصلتين ما زالتا من مقطعين، وفي الفاصلة الثالثة (السموم) نرى أنه قد زيد مقطع قصير مفتوح لتتألف من ثلاثة مقاطع. وربما عمد القرآن إلى هذا التصعيد تحقيقا للتنوع الموسيقي.

---

(١) نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص ١٢٥.

الفصل الثاني:

المستوى الدلالي للألفاظ.

أولا: تكامل المستوى الصوتي مع المستوى الدلالي.

تناولنا في الفصل السابق ظواهر ودلالات من الجانب الصوتي في سورة "الحِجر"، وفي هذا الفصل سندرس المستوى الدلالي لألفاظ اختارها التعبير القرآني؛ إذ إن "عملية الكلام لها جانبان: أحدهما مادي وهو الأصوات المنطوقة، والآخر عقلي وهو المعنى المقصود، وعلى هذا فيجب أن يسير التحليل اللغوي في خطين متوازيين"(١). وهذا ما بيَّنه الرافعي عند حديثه عن مظاهر الإعجاز في الكلمات القرآنية وحروفها، يقول: "إن في كلمات القرآن أصواتا ثلاثة:

الأول: صوت النَّفْس، وهو إيقاع الألفاظ الموسيقي، ونغمها الفني.

الثاني: صوت العقل، وهو الصوت المعنوي الذي يتعلق بمعاني القرآن، ومخاطبتها للفكر والعقل.

الثالث: صوت الحس: وهو أبلغ الأصوات شأنا، وهو اجتماع إيقاع الألفاظ وروعة المعاني، أي هو اجتماع صوت النفس وصوت العقل معا"(٢).

ثم إن العلاقة بين الصوت والدلالة علاقة تكاملية تطابقية، فبعض الأصوات تعبر عن معنى معين من الدلالات، كما أن بعض الدلالات تستدعي نوعا معينا من الأصوات، وإنما هذا لأن "هناك نوعين من النسيج في العمل الأدبي: أحدهما هو النسيج الصوتي، والآخر هو النسيج الدلالي، وهما لا يحتاجان عادة إلى التطابق سوى في الأدب"(٣).

ومن الملاحظ أن للألفاظ في القرآن الكريم بأصواتها ودلالاتها مكانة خاصة، بما تنفرد به عن غيرها من الدقة المتناهية، والانسجام التام مع السياق الذي ترد فيه، بحيث لو أنك حاولت جاهدا أن تستبدل بكلمة ما كلمة أخرى لأعياك ذاك، إذ سيختل المعنى، وينتقص التعبير؛ لأن ألفاظ الذكر الحكيم تأتي "في ضمن الأسلوب البياني الرائع. ونعتقد مؤمنين أن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته، وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته"(٤).

---

(١) أولمان، ستيفن: دور الكلمة في اللغة، (ترجمه وقدم له وعلق عليه: كمال بشر)، ط٢، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٣٧.
(٢) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص١٨٧،١٨٨.
(٣) فضل، صلاح، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٩٣.
(٤) أبو زهرة ، محمد، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٠٤.

ثانيا: من سمات الألفاظ وميزاتها.

ليس المقصود من دراسة المستوى الدلالي في سورة (الحِجر) البحث في معاني الألفاظ مستقلة عن سياقها الذي وردت فيه، فلا تصح النظرة الفردية في كل كلمة، دون التعرف إلى موقعها في السورة، وفي المعنى العام الذي يسبكها، إذ لا قيمة للفظة في حد ذاتها، بل إن قيمتها مستمدة من السياق الذي يمنحها دلالتها المتميزة في النص ومدى علاقتها ببقية عناصر الجملة، والذي يقدم لنا العون في تحديد المعاني والدلالات المقصودة، فـ"الألفاظ المتضادة والمترادفة، وحروف الجر، وحروف العطف، وحروف الاستفهام ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ لا يكشف معناها إلا السياق اللغوي"(١).

وهذا ما تنبه إليه علماؤنا القدامى، يقول عبد القاهر الجرجاني:" وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟"(٢).

ثم إن السياق بدراسته للكلمة نفسها بما يجاورها من الكلمات، وكذا الجُمل، ليصل بنا إلى دراسة البنية الكاملة للنص، ومناسبته ومقاصده، فالسياق يدرس " المعنى المقالي(ويشمل المعنى الوظيفي، المعنى المعجمي، القرائن المقالية الأخرى)، والمعنى المقامي (ويشمل ظروف أداء المقال ـ القرائن الحالية)"(٣).

ولن نقف عند هذا الجانب ـ المستوى الدلالي للألفاظ ـ إلا بالقدر الذي يخدم جوانب خفية من الدلالة؛ فإن المعاجم اهتمت بتبيان معاني الألفاظ مفردة، أو من خلال سياقاتها أحيانا. وإنما غايتنا هي الكشف عن ميزة اللفظ في سياقه، وتلمس جوانب الدلالة التي يحملها معه. ومن هذه السمات والمزايا ما يأتي:

١. الدقة في الانتقاء.

وهذه من السمات العامة، والمزايا البارزة التي نتلمسها في ألفاظ القرآن الكريم كله؛ إذ نجد الألفاظ قد وقعت في مكانها المناسب، وعبرت عن المعنى المطلوب بالتعبير الأدق؛ فلا يمكن استبدال لفظ بغيره دون أن يختل المعنى. وهذا سر من أسرار التعبير القرآني المعجز؛ فـ" كتاب

---

(١) حامد، أحمد حسن، دراسات في أسرار اللغة، ط١، مكتبة النجاح الحديثة، نابلس، ١٩٨٤، ص٥.
(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٤.
(٣) حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص ٣٥٢-٣٥٣.

الله Y لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد"(١).

ولندرس كلمة (يَوَدُّ) في قوله Y: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢}) متلمسين جمال التعبير الفني فيها. فالوُدُّ: يدور معناه في فلكين اثنين، أولاهما: التمني: "ودِدتُ الشيء أودُّه، وهو من الأمنية"(٢)، ويؤكد هذا المعنى ورود (لو) المستعملة في التمني. وثانيهما: الحُب، فـ" الودّ، الحبُ يكون في جميع مداخل الخير، ووَدَّ الشيء: أحبَّه"(٣).

وكلا المعنيين متحقق للفظة (يَوَدُّ) في سياقها هذا، ليعطي لها قوة الدلالة على شدة تمني الكفار الإسلام "يوم القيامة، أو عند موتهم، أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين، أو عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار"(٤)، وشدة حبهم الإسلام وقد تلفعوا الندم؛ إذ ردوا الإسلام غير مرة، وكتموه في نفوسهم عنادا وكفرا.

ولو حاولت استبدال لفظ (يَوَدُّ) لفظا غيره من المعنيين المشتمل عليهما تكون قد انتقصت من المعنى، إذ ليست (يُحِبُّ) بحاملة معها دلالة حب الإسلام ـ وقتئذ ـ مع الندم الشديد الذي يبثه (التَّمنّي)، نحو قوله Y: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)(الفرقان:٢٧)، ولا (يتَّمنّى) بحاملة معها دلالة ما في الإسلام الذي يتمنونه من خير عميم، يصوره لنا (الحُبُّ) بإيحاءاته.

ومن الدقة قوله Y:(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{١٢}). وصف التعبير القرآني مكذبي الرسل ـ عليهم السلام ـ بـ (الْمُجْرِمِينَ) دون الكافرين، لأن " وصف الكفر صار لهم كاللقب لا يشعر بمعنى التعليل"(٥).

ومن أمثلة الدقة في انتقاء الألفاظ كلمة(ظَلّ) في قوله Y: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{١٥}). وهذه الآية كلام جامع لإبطال دعوى طلب المشركين آية على صدق الرسول ε، فإنهم لو فتح لهم باب من السماء، فرأوا ما فيها من عجائب، لاعتذروا بأنها أوهام وسحر. ولتصوير مكابرة المشركين

---

(١) الحمصي، نعيم، فكرة إعجاز القرآن، ط٢، (تقديم محمد بهجة البيطار)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠، ص٩٥.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة(ودد)، ج٦، ص٤١٦.
(٣) المصدر نفسه، مادة (ودد)، ج٦، ص٤١٦.
(٤) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت ٩٨٢هـ ـ ١٥٩٤م)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (تحقيق عبد القادر أحمد عطا)، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٩٧١، ج٣، ص٢٨٨.
(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٢٤.

المرذولة، وعنادهم البغيض عبَّر القرآن الكريم بلفظ (ظَلّ) التي تدل على أن "عروجهم بالنهار، ليكونوا مستوضحين لما يرون"(١). "والعرب لا تقول ظل يظل إلا لكل عمل عُمل بالنهار"(٢).

ومن الدقة الفعل (آتَيْنَاكَ) والصفة (الْعَظِيمَ) في قوله Y: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧} لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨}). وآثر البيان القرآني ذلك الفعل دون (أوحينا) أو (أنزلنا)، وتلك الصفة دون (الكريم) أو (المبين)؛ لأن سياق الكلام تكريم النبي ε وصرفه عن التطلع إلى زهرة الدنيا الفانية، ولفظا (الإيتاء والعظيم) أظهر في بيان المنّة والتفضل.

وفي قوله Y: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥}). دقة في التعبير عن المشركين بوصف (الْمُسْتَهْزِئِينَ)، ليومئ إلى أن قصارى ما يؤذون النبيε به الاستهزاء، "وهو أقل أنواع الأذى، فكفايته مما هو أشد من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحرى"(٣).

٢.الانحراف الدلالي.

وهو انتقاء التعبير القرآني لألفاظ يزحزحها عن أصلها المعجمي بما يمثل انتهاكا لقواعد المعجم، مما يجعلها تؤدي معنى جديدا. وهذا ما اصطلح الأسلوبيون على تسميته بـ(الانحراف) "وهم يعنون به تنضيد الكلمات في سياق يمنحها دلالات جديدة غير تلك التي حددها لها المعجم، وهذا من باب الانتقاء السياقي"(٤).

ومن هذا الانحراف في سورة (الحِجر) ما نلمسه من تراسل دلالي بين(سُكِّرَتْ) و(أَبْصَارُنَا) في قوله Y: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{١٥}).

فالمعاني التي يطالعنا بها المعجم للفظ (سُكِّرَتْ) بما يناسب السياق تدور في فلكين اثنين: "الأول: السُكر: نقيض الصحو، والثاني: سُكِّرت: سُدَّت"(٥). وحول هذين المعنيين تعددت أقوال المفسرين لـ (سُكِّرَتْ)؛ لتعلق دلالتها بـ(أَبْصَارُنَا). جاء في معاني القرآن للنحاس:" قال Y: (لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) قال ابن عباس: أُخذت. قال الحسن: أي سُحِرت. وحكى أبو عبيد

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٧٣.
(٢) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر(ت٦٠٦هـ ـ ١٢١٨م) التفسير الكبير، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١٩، ص١٦٦.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٨٩.
(٤) خليل، إبراهيم، الضفيرة واللهب، ص٧٦.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سكر)، ج٣، ص٣٠٨.

عن أبي عبيدة: أنه يقال: سُكِّرت أبصارهم إذا غشيها سمادير(ضعف البصر) حتى لا يبصروا. وقال الفراء: من قرأ (سَكَرَت) أخذه من سكون الريح. قال أبو جعفر: وهذه الأقوال متقاربة، والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء - يرحمه الله - قال: هو من السُكر في الشراب. وهذا قول حسن، أي غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله"[١]. وقيل معناها: سُدَّت[٢]. وقيل: حُيِّرت[٣]. وصوتيا، نجد أن في كل من التفسيرات السابقة لـ(سُكِّرَتْ) معنى التأثير في الأبصار، وإحداث الأثر فيه؛ وذلك أن " للسين مع الكاف إذا وقعتا فاء وعينا للفعل معنى التأثير في الشيء"[٤].

ولعل هذا التعدد في المعنى لما أحدثه الانحراف لـ(سُكِّرَتْ) من تراسل دلالي؛ إذ اقترنت بـ(أَبْصَارُنَا)، والأبصار لا تَسكَرُ ولا تُسدُّ، الأمر الذي أضفى على الآية طابع التعبير بالصورة، "والتعبير بالصورة الفنية أبلغ من التعبير بالجمل الخبرية أو الوصفية التقريرية"[٥]، نحو القول: نجحد أن نكون رأينا شيئا. فإن التعبير بهذا الانحراف القائم على المجاز أدخل إلى أذهاننا شدة عناد المشركين وغلوهم في المكابرة، وتفاديهم عن قبول الحق، ما جعلنا نديم فيها النظر، ونطيل التأمل، كي نستوعب دلالاتها بالكامل.

٣. ألفاظ تثير الخيال بما فيها من تصوير مستمد من الواقع.

ويختار القرآن الكريم - للتعبير عن المعاني المجردة - ألفاظا تجسد الموقف وتصوره؛ فلا تعيه الأذهان فقط، وإنما الأذهان والخيال والشعور، ومن ذلك معنى (الغفلة)؛ فقد اختار التعبير القرآني للدلالة عليها ألفاظ (الأكل والتمتع واللهو) في قوله Y:(ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣}).

نجد التعبير القرآني يصف الكفار بالأنعام وصفا مباشرا تارة، نحو قوله Y: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً{٤٤})(الفرقان:٤٤) وتارة أخرى يترك للخيال تصور هذه الصفة بما يستمده من الواقع؛ فكل من أشغل نفسه بالأكل والتمتع واللهو فقط إنما هو من الأنعام التي لا تتأمل ولا تتدبر ولا تستطلع، "وفي تقديم الأكل إيذان بأن تمتعهم

---

(١) النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن إسماعيل(ت ٣٣٨ هـ/٩٥٠م)، معاني القرآن، ط١، (تحقيق محمد علي الصابوني)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٧٨، ج٤، ص١٤.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص١٢٣.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٥، ص١٤١.
(٤) الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط ٩، اليمامة، دمشق - بيروت، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ، ٢٠٠٣، ج٤، ص١٧٩.
(٥) خليل، إبراهيم، الضفيرة واللهب، ص٧٩.

إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب"(١).

وهذه اللذات الجسدية تصور حال المعرضين عما في الإسلام من الكمال النفسي، إذ رضوا بحياة الأنعام، "فهم يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية الدارسة، ويأكلون فيها غير مفكرين في المعاد، ولا معتبرين بما وضع الله لخلقه من الحجج المؤدية لهم إلى علم توحيد الله، ومعرفة صدق رسله، فمثلهم في أكلهم ما يأكلون فيها من غير علم منهم بذلك وغير معرفة مثل الأنعام من البهائم المسخرة التي لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره"(٢).

ومن هذه الألفاظ الحسية التصويرية كلمة (مَدَّ) في قوله Y: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩}) أي "بسطناها"(٣) " والمد: البسط والسعة، ومنه: ظل مديد. ومنه مدُّ البحر وجزره، ومَدَّ يده إذا بسطها"(٤).

والمعنى الرئيسي للمد يتمثل في التمدد والتوسع، فـ" الميم والدال أصل واحد يدل على جر شيء في طول، واتصال شيء بشيء في استطالة. تقول: مددت الشيء أمده مدا. ومد النهر، ومده نهر آخر، أي زاد فيه وواصله فأطال مدته.."(٥) واختيار هذه الكلمة بالذات يرتبط بكونها منتزعة من واقع العرب أرباب هذه اللغة، وهم أقدر على إدراك معناها. وذلك أن آية (مدَّ الأرض) تشكل خطا عريضا في لوحة الكون الهائلة، وهي تصور لنا الأرض الضخمة، وقد مدّت أمام النظر، وصارت مبسوطة للخطو والسير. هذه الأرض مترامية الأطراف، بعيدة النهايات، كالحبل الذي يرخيه الراعي لناقته السارحة؛ فالمد "حقيقته إرخاء الحبل وإطالته"(٦). ومما ساعد في وضوح الصورة وإبرازها، فك التشديد عن الدال (مدّ=مدد) ليفصح عن مزيد من البسط والإطالة.

وتكرّر معنى (المَدُّ) بما يستمد من الواقع المشاهد في قوله Y: (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨}) والعين لا تمتد، إنما يمتد البصر أي يتوجه، فالمد هنا "استعير إلى التحديق بالنظر والطموح به تشبيها له بمد اليد

(١) الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٩.
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٦، ص٦٩٣.
(٣) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١، ص٢٠٨..
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٦، ص٨٢.
(٥) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ - ١٠٠٧م)، معجم مقاييس اللغة، (تحقيق عبد السلام هارون)، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٩٠، مادة (مدد)، ج٥، ص٢٦٩.
(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٧، ص١٥٦.

للمتناول؛ لأن المنهي عنه نظر الإعجاب مما هم فيه من حسن الحال في رفاهية عيشهم مع كفرهم"[١]. وسيأتي تفصيل لهذه السمة في الفصل الرابع من الدراسة (التصوير الفني).

٤. تنوع المعاني دون تناقضها.

ويجد الناظر في ألفاظ القرآن الكريم أن منها ما يحمل معه دلالات مختلفة، تتكامل ولا تتناقض، وتغني المعنى ولا تنقضه، " فهي تحتضن في وقت واحد هذه الدلالات، لتقدم لكل عصر أو فئة من الناس ما هو أقرب إلى مألوف ذلك العصر أو ثقافة أولئك الناس، وجميعها دلائل صادقة صحيحة"[٢].

ومن ذلك، كلمة (بروج) في قوله Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦}). والبرج هو "كل ظاهر مرتفع"[٣]. وتعددت أقوال العلماء في معنى (البروج) في الآية المذكورة وكلها يدل على معنى الظهور، " فقال بعضهم: الكواكب، وقيل: الكواكب العظام، وقيل: هي قصور في السماء، وقيل هي منازل الشمس والقمر والنجوم، وفي هذا القول الأخير تشبيه لها بالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه، فلا تناقض"[٤].

ولأن هذه الآية تقع في مستهل إظهار القرآن الكريم لدلائل توحيد الله Y؛ فقد جاء التعبير القرآني بكلمة (البروج) التي تفيء إلى دلالة الظهور في معانيها المختلفة (الكواكب، القصور، منازل النجوم والكواكب) لتكون " شاهدة بالقدرة، وشاهدة بالدقة، وشاهدة بالإبداع الجميل"[٥].

ومن الأمثلة، كلمة (الحق) في قوله Y: (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨}) ويراد منها معنيان: أحدهما، نزول الملائكة لأجل تبليغ الوحي، والآخر نزول الملائكة لعذاب الاستئصال[٦]. واختيار أحد المعنيين إنما هو حسب تقدير المحذوف في قوله Y على لسان كفار قريش: (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧}) وهو إتيان الملائكة "

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص ٨٢.
(٢) البوطي، محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، ص١٣٩.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة(برج)، ج١، ص١٨٤.
(٤) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ج٣، ص٩٠.
(٥) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٣٣.
(٦) انظر: شيخ زاده، محيي الدين محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي(ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٩٧م)، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، (ضبطه وصححه محمد عبد القادر شاهين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩، ج٥، ص١٩٦.

ليصدقوك ـ يا محمدε ـ ويعضدوك على الدعوة، أو للعقاب على تكذيبنا لك كما أتت الأمم المكذبة قبل"(1).

ومن الأمثلة التي اعتمد فيها التعبير القرآني على الوصف بما يمنح السياق تنوعا في الدلالة، كلمة (لَوَاقِحَ) في قوله Y:(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢}).

ووصف الرياح بـ(لواقح) من بلاغة الآية؛ إذ أفادت كلا العمليين اللذين تعملهما الرياح، فـ"(لواقح) صالح لأن يكون جمع (لاقح) وهي الناقة الحبلى، واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سببا في نزول المطر. وصالح لأن يكون جمع (مُلقِح) وهو الذي يجعل غيره لاقحا، أي الفحل إذا ألقح الناقة. والرياح تلقح الشجر فيما يسمى بالإبار. وقد فسرت الآية بهما، وإن اقتصر جمهور المفسرين على أنها لواقح السحاب بالمطر"(2). وفي كل من الوصفين ما يستدل به على وحدانية الله Y وقدرته.

ومن هذه الأوصاف متعددة الدلالة: (المُقْتَسِمِينَ) و(القرآن) و(عضين) في قوله Y: (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١}) وبيانه: أن (المُقْتَسِمِينَ): ـ "مِن قَسَمَ، وقسَّمه أي جزَّأه"(3)ـ وهو وصف يجوز أن يراد به أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أو اليهود فقط، أو المشركون، أو جمع من مشركي قريش، وهم ستة عشر رجلا(4). و(الْقُرْآنَ) " هنا يجوز أن يكون المراد به الاسم المجعول علما لكتاب الإسلام، ويجوز أن يكون المراد به الكتاب المقروء فيصدق بالتوراة والإنجيل"(5). و(عضين) يجوز أن يكون معناه التفريق أو السحر أو الكذب، فهي "جمع (عِضة) وأصلها (عَضَوَ) والتعضية: التفريق"(6). أو أصلها (عَضَهَ) والعَضَهُ: الإفك والكذب والبهتان والسحر"(7).

فهذه الأوصاف المتعددة منحت المعنى تنوعا في الدلالة، " فأهل الكتاب هم المقتسمون لكتبهم التوراة والإنجيل، إذ إن اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، فجزؤوهما. ودلالة هذا، تسلية رسول الله ε عن صنيع قومه بالقرآن

---

(1) المصدر نفسه، ج٥، ص١٩٥.
(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٣٧،٣٨.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة (قسم)، ج٥، ص٢٥٧.
(4) انظر أسماءهم: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص ٨٦.
(5) المصدر نفسه، ج١٤، ص٨٥.
(6) ابن منظور، لسان العرب، مادة(عضو)، ج٤، ص٣٦٤.
(7) ابن منظور، لسان العرب ، مادة(عضه)، ج٤، ص ٣٦٣.

وتكذيبهم، وقولهم سحر وشعر وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم.

واليهود هم المقتسمون للكتاب الذي نزل على محمد ε، إذ قالوا بعنادهم وعدوانهم: بعضه حق موافق للتوراة، وبعضه باطل مخالف له، فاقتسموه إلى حق وباطل. ودلالة هذا، إنذار قريش مثل ما أنزلنا من العذاب على اليهود، وهو ما جرى على بني قريظة وبني النضير، جعل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز.

والمقتسمون هم المشركون الذين رفضوا القرآن الكريم واقتسموه إلى سحر وكذب وبهتان وافتراء، أو هم نفر من مشركي قريش اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله، يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر. وقد أهلكهم الله Y يوم بدر، وقبله بآفات، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم"(١)، ودلالة هذا، أن الله Y كاف عبده محمدا ε كيد المشركين واستهزاءهم، قال سبحانه: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥}).

ولعل الآية تتسع في دلالتها حتى ينصرف معناها " إلى المسلمين الذين يجزؤون القرآن ويقسمونه، ويأخذون منه جزءا ويتركون أجزاء، ويظهرون منه قسما، ويخفون أقساما، ويؤمنون بموضوع منه، ويكفرون بموضوعات"(٢) .

ومن الأمثلة ـ أيضا ـ كلمة (الْيَقِينُ) في قوله Y مخاطبا رسوله ε: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{٩٩}) واليقين: هو "العلم وزوال الشك"(٣). ويجوز أن يراد به معنيان: الأول: النصر الذي وعد الله Y به نبيه ε(٤)، فيكون المراد تثبيت قلب النبيε، ودعوته للتصبر، وتبشيره ε بنصر الله Y له.

والثاني: الموت(٥)، لأنه أمر متيقن منه، والمراد: "أعبد ربك في جميع زمان حياتك، ولا تُخلِ لحظة من لحظات الحياة من العبادة"(٦).

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٥١. وانظر كيف أهلكوا: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص٤٧.
(٢) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، مفاتيح للتعامل مع القرآن، ط٤، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٥، ص٢٤.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة (يقن)، ج٦، ص٥١٩.
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٩٢.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، مادة (يقن)، ج٦، ص٥١٩.
(٦) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص٤٩٧.

ثالثا: من العلاقات الترابطية بين الألفاظ.

يكشف البحث في أشكال العلاقات الترابطية بين كلمات السورة ـ من حيث معانيها ودلالاتها ـ عن طرف من أسرار التعبير القرآني وأغراضه، ويمكن تمثيل هذه العلاقات في الأشكال الآتية: الترادف، والمشترك اللفظي، والتضاد(المقابلة).

أولا: الترادف.

ولعل أقرب تعريفات الترادف وأسهلها أنه: ما اختلف لفظه واتفق معناه، أي وجود لفظين أو أكثر يدلان على نفس المعنى. ومثَّل له علماء العربية بأسماء السيف، مثل: الصارم والمهند والحسام والقضيب.(١)

وقد طال الجدل ـ قديما وحديثا ـ حول الترادف في اللغة من حيث حقيقة وجوده ومسبباته، بين منكر ومؤيد، المنكرون يرون أن هناك فروقا ومعاني جزئية دقيقة بين الكلمات التي توهم عمليات الاستبدال الداخلية بينها في سياقات متشابهة أن الترادف حقيقة واقعة. ففي المثال السابق لا ترادف؛ لأن الصارم صفة للسيف، وليس مرادفا له، "فإنهما دلا على شيء واحد لكن باعتبارين، أحدهما على الذات، والآخر على الصفة"(٢). ومما يستدلون به على كون " اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أن الاسم كلمة تدل على معنى، دلالة الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فَعُرِّف، فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة"(٣). والألفاظ وإن تقاربت معانيها يظل لكل لفظ هوية معنوية خاصة به. وبالتالي "يمكن القول: إنه ليست هناك مترادفات حقيقية، وأن ليس هناك لكلمتين نفس المعنى تماما"(٤).

أما المؤيدون؛ فيحتجون له من الواقع اللغوي بعدد كبير من المترادفات التي جمعها رواة اللغة، دون البحث في الفروق بينها، بالإضافة إلى كونهم " تجاهلوا تطور الدلالة فيها، وخلطوا بين عصور اللغة. ولذا جمعوا بين لفظ عرفت له دلالة جاهلية قديمة، وآخر اشتهر بدلالة إسلامية حديثة."(٥)

---

(١) انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، البيان في إعجاز القرآن، دار عمار ـ عمان، ص ١٦٤.
(٢) السيوطي، المزهر، ج١، ص٣١٦.
(٣) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله(ت ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٥م)، الفروق اللغوية، ط٤، (تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ص١٣.
(٤) بالمر، ف، علم الدلالة، (ترجمة عبد الحليم الماشطة)، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، ١٩٨٥، ص١٠٤.
(٥) أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، ط٧، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٢، ص ٢١٩.

ومهما يكن من أمر، فإن ثمة طريقة عملية لاختبار الترادف، نص عليها أولمان في تعريفه للمترادفات: وهي" ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينها في أي سياق"(١). أي أنه لا يجوز لنا الحكم على ترادف ألفاظ ما إلا إذا استطعنا إجراء تبادل فيما بينها في مختلف السياقات بحيث يؤدي كل منها المعنى نفسه دون تغير. وهذا ما لا يمكن حصوله في القرآن الكريم البتة؛ إذ الكلمة القرآنية تمتاز "عن سائر مترادفاتها بتطابق أتم مع المعنى المراد، فمهما استبدلت بها غيرها، لم يسد مسدها ولم يغن غناها، ولم يؤد الصورة التي تؤديها"(٢). لذا فإنه لا ينبغي على الدارس لألفاظ القرآن الاكتفاء بالنظرة العاجلة، والتفسير العام، والدلالة الإجمالية للمعنى، حتى يقرر أن في كلمات ما ترادفا، فإنه "من يسبر أغوار هذه الكلمات، ويستخرج ما ينماز به منها عن غيرها في الخصائص والفروق، يعلم أنها ليست من المترادفات في شيء"(٣).

وللتأكيد على ذلك، قمت بدراسة بعض المفردات التي تحتمل الوصف بالترادف في سورة (الحِجر)، وبحثت في معانيها، وعلاقاتها مع السياقات التي وردت فيها، فما وجدتها مترادفة، وإنما وجدت فروقا دقيقة بينها. وفيما يأتي مجموعة من الألفاظ التي تناولتها بالدراسة:

أ.(الكتاب، والقرآن، والذكر)

ومن مواطن ورود هذه الألفاظ في السورة، قوله Y:

(الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}).

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}).

وقد يظن من النظرة العجلى أن هذه ألفاظ مترادفة، ولكنها عند التحقيق ليست ذلك؛ فهي وإن دلت جميعها على ما نزل على محمد ε من الآيات الكريمة إلا أن بينها فروقا معنوية، تشكل المعنى الأكمل.

فلا يمكن القول بترادف لفظي (الكتاب والقرآن) في قوله Y:(الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١})؛ للعطف والجمع الذي بينهما. وليس ثمة ترادف بين (الذِّكر والقرآن)، أفاده قول الله Y: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ {٦٩})(يس:٦٩)؛ إذ نفت الآية

(١) أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص١٢١.
(٢) البوطي، من روائع القرآن، ص ١٣٩.
(٣) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣٧.

الكريمة أن يكون ما أنزل على محمد ε شعرا، وإنما هو (ذِكر وقرآن)، وهذا يقتضي المغايرة بين الوصفين.

وهذه الألفاظ الثلاثة بينها من الفروق المعنوية ـ سنذكرها ـ ما يدلل على صدق الله Y في إنجاز وعده أن يحفظ كتابه العزيز (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). فقد رتبت هذه ألفاظ ـ الكتاب (الحفظ في السطور) ـ القرآن (الحفظ بالصدور) ـ الذكر (التكرار) ـ بما يؤدي إلى هذه النتيجة الحتمية، وبيانه: أن الكتاب: هو "اسم لما كتب مجموعا"(١)، وفي هذا اللفظ إشارة إلى أمر المؤمنين " بكتابة ما ينزل من القرآن؛ لحفظه ومراجعته. فقد سمي القرآن كتابا قبل أن يكتب ويجمع لأنه بحيث يكون كتابا"(٢). و(القرآن): هو "مصدر مرادف للقراءة، نقل من المعنى المصدري، وجعل اسما للكلام المعجز المنزل على النبي ε ، من باب إطلاق المصدر على مفعوله"(٣)، وفيه تنبيه للمؤمنين على أن يقرؤوا هذا الكتاب العزيز ويدرسونه، متدبرين ما فيه من الصور البيانية العالية، فهو قرآن يقرأ بحروف هذه اللغة نفسها، ويستخدم طرائق تعبيرها، وأساليبها. "وكلمة قرآن حيثما وردت مقترنة بالكتاب فإنها بمعنى مقروء"(٤). ويلاحظ من التسميتين معنى الضم والجمع، فالقرآن من القراءة، والقراءة هي: "ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل"(٥). والكتاب من الكتابة، وهي: " ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يستعار كل واحد للآخر، ولهذا سمي كلام الله ـ وإن لم يكتب ـ كتابا"(٦).

وفي تسمية كلام الله بهذين الاسمين: الكتاب والقرآن، يتحقق الحفظ التام المطلق لكل سور القرآن وآياته، فلا تصله يد التحريف والضياع والنقصان، إذ حُفِظَ بوسيلتين عمليتين، هما أتم وسائل التوثيق والحفظ: وسيلة الكتابة، ووسيلة القراءة، " فلا يقبل القرآن المقروء ما لم يعرض على المصحف العثماني المكتوب ويتفق معه، ولا يقبل المكتوب ما لم يتفق مع تعليم الرسولε أصحابه للقرآن، وإقرائهم له، وقراءته له أمامهم"(٧).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة(كتب)، ج٥، ص٣٧٠.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٨.
(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة (قرأ)، ج٥، ص٢٢٠.
(٤) انظر، أبو عودة، عودة، البيان القرآني: مفهومه ووسائله، مجلة إسلامية المعرفة، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٩، العدد ٥٦، ص٦٠.
(٥) الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد(ت ٥٠٣ هـ ـ ١١١٥م)، معجم مفردات ألفاظ القرآن، (ضبطه وصححه إبراهيم شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، مادة (قرأ)، ص٤٤٥، ٤٤٦.
(٦) المصدر نفسه، مادة (كتب)، ص٤٧٢.
(٧) انظر: دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤، ص١٣.

وفي تقديم (الكتاب) على (القرآن) في الآية (الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}) نكتة بلاغية تفصح عن فرق بين اللفظتين، وهي "أن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنهم سيجيء وقت يتمنون فيه أن لو كانوا مؤمنين. فلما كان الكلام موجها إلى المنكرين ناسب أن يستحضر المنزل على سيدنا محمد ε بعنوانه الأعم وهو كونه كتابا، لأنهم حين جادلوا ما جادلوا إلا في كتاب، فقالوا:(.... لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ...)(الأنعام: ١٥٧)، ولأنهم يعرفون ما عند الأمم الآخرين بعنوان (كتاب)، ويعرفونهم بعنوان (أهل الكتاب). أما عنوان (القرآن) فهو مناسب لكون الكتاب مقروءا مدروسا، وإنما يقرأه ويدرسه المؤمنون به"[(١)].

ثم (الذِّكر) وهو لغة: "مصدر ذِكر، وهو جري الشيء على اللسان"[(٢)]، فهو دائم الذِّكر والإعادة. ومن معانيه في الاصطلاح: "الكلام الموحى به ليُتلى ويُكرّر، وهو تسمية جامعة عجيبة لم يكن للعرب علم بها من قبل أن ترد في القرآن، ويعني أن في القرآن التذكير بالله واليوم الآخر، أو أن به ذكرهم في الآخرين"[(٣)]. وفيه تضمين للمعنيين السابقين، وتأكيد على حفظ الله Y القرآن الكريم؛ فالمؤمنون لا يزالون يراجعون ما كتبوا، وما قرؤوا.

ب.(القرية والمدينة).

تقترن دلالة القرية في القرآن الكريم ـ غالبا ـ بالعذاب والهلاك، وعلى العكس منها دلالة المدينة[(٤)]. وإن "خُصَّت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة"[(٥)]. وفي انسجام تام كان ورود لفظي (القرية والمدينة) في سورة (الحِجر) مع ما ورد في القرآن الكريم بشكل عام.

قال Y:(وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}). وهذا تهديد ووعيد للمشركين أن سُنّة الله Y هي إهلاك الظالمين وإن أُمهِلوا؛ لئلا يغرنهم ما هم فيه من التمتع؛ فيظنوا أنهم يفلتون من عذاب الله Y.

أما عند الحديث عن قوم لوط ـ عليه السلام ـ، فقال Y: (وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ{٦٧})؛ لتكشف لنا الآية عن الأبعاد النفسية للقوم، وتصورها في أدق حالاتها، فـ(الاستبشار) يفصح عن سعادتهم وسرورهم؛ إذ أخبروا أن رجالا مردا حلُّوا ببيت لوط ـ عليه

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٩،١٠.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة(ذكر)، ج٢، ص٤٦٤.
(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص١٧.
(٤) انظر، عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١، مادة(قري)، ص٦٥٣، مادة(مدن)، ص٧٦٠.
(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٦، ص٤٠.

السلام ـ، فأرادوا اغتصابهم كعادتهم السيئة. وكلمة(المدينة) تصوِّر هذه السعادة التي كانوا عليها؛ إذ حسبوا أنفسهم ناجين من عذاب الله وهلاكه، فأمنوا مكره سبحانه، (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ{٧٣}).

ج. (جعلنا وخلقنا).

نجد أن مفردتي (جعل وخلق) اقترن ظهورهما في السورة بدلائل التوحيد السماوية والأرضية. قال Y: (وَلَقَدْ **جَعَلْنَا** فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦}). وقال Y: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَ**جَعَلْنَا** لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠}). وقال Y: (وَمَا **خَلَقْنَا** السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{٨٥}) بينا اقترن لفظ (خلق) بالثقلين حسب: الإنس والجان. قال Y: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨})، وقال Y: (وَلَقَدْ **خَلَقْنَا** الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦} وَالْجَآنَّ **خَلَقْنَاهُ** مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{٢٧}).

ولهذا الاقتران دلالته المعنوية التي لا تجوّز لنا القول بترادف اللفظين، بل العلاقة بين اللفظين علاقة تضمين؛ إذ (الجعل) في التعبير القرآني يرد بمعان متعددة منها " الخلق: ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء. وليس الخلق بمعنى الإبداع إلا لله Y"[١]. وهذا مما يدل عليه اللفظان في كلا السياقين، فالبروج والمعايش والإنسان والجن ـ كلها ـ خلق لله Y.

ومن معاني الجعل " تصيير الشيء على حالة دون حالة "[٢]. وعليه يجوز أن يكون معنى (جعلنا) في قوله Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦}) أي: "صيّرنا"[٣]. الأمر الذي يفهم منه أن السماء كانت خلوا من الكواكب إلى أن شاء الله Y لها أن تتزين بها. وكذلك الأرض (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠}) التي صيَّر الله Y فيها "ما يعيش به المرء في الدنيا "[٤] بعد أن لم يكن فيها ما تستقيم به الحياة. وهذا المعنى لا يمكن سحبه على لفظ (خلقنا) ـ المتعلق بالإنسان والجان ـ الذي يعنى حقيقة الخلق، وهو الإبداع فقط.

ولاستخدم لفظ (الجعل) بمعنى (الخلق) دلالته المتميزة التي تتناسب والسياق، فقد آثر التعبير

---

(١) انظر: الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، ج٢، مادة(جعل)، ص٣٨٣، مادة (خلق)، ص٥٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، مادة(جعل)، ص٣٨٣ .
(٣) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص٤٣٨.
(٤) المصدر نفسه، ج١١، ص ٤٤٣.

القرآني (الجعل) دون (الخلق) في قوله Y: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ...){البقرة:٣٠}، بينا في سورة (الحجر) قال Y: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً...). ولا ثالث لهما. يقول الإمام الكرماني في ذلك: "لأن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق) يستعمل في الشيء يتجدد ويتكرر، كقوله: (الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ...)(الأنعام:١)؛ لأنهما يتجددان زمانا بعد زمان. وكذلك (الخليفة) يدل لفظه على أن بعضهم يخلف بعضا إلى يوم القيامة. وخُصَّت هذه السورة بقوله: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً)؛ إذ ليس في لفظ البشر ما يدل على التجدد والتكرار، فجاء في كل واحدة من السورتين ما اقتضاه ما بعده من الألفاظ"[1].

د.(الإنسان وبشر).

ولنتأمل العلاقة بين الكلمتين: (الإنسان وبشر) في سياقهما، حيث ورد لفظ (الإنسان) في مستهلّ قصة الوجود الإنساني:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦}) وورد لفظ (بشر) مرتين: الأولى، عند خطاب الله Y ملائكته: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨}) ، والثانية، على لسان إبليس الرجيم في ردِّه على سؤال الله Y له:(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢} قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣}).

والمقصود في كل من اللفظين آدم ـ عليه السلام ـ وهذا لا يعني ترادفهما، بل تباينهما بالصفات[2]؛ فإن ذكر كل من اللفظين ـ الإنسان والبشر ـ موضوع باعتبارات تنطوي على التنويه بصفات آدم ـ عليه السلام ـ هذا الذي سيشكل خلقه نقطة البدء للمعركة الخالدة بين الهدى والضلال. ولذا رأينا فعل الخلق يتكرر مع اللفظين (خَلَقْنَا الإِنسَانَ، خَالِقٌ بَشَراً، لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ).

والإنسان: هو اسم على وزن فِعلان، وفي اشتقاقه أقوال منها: الأنس، فـ" الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش"[3]. فسمي به لأنه يأنس ويؤنس به. وقيل اشتقاقه من " الإيناس، وهو الإبصار والعلم والإحساس لوقوفه على الأشياء بطريق العلم، ووصوله إليها بواسطة الرؤية، وإدراكه لها بوسيلة الحواس. وقيل اشتقاقه من النوس، بمعنى التحرك، سمي به لتحركه في الأمور العظام، وتصرفه في الأحوال المختلفة،

---

(١) الكرماني، محمود بن حمزة (ت ٥٠٥هـ/ ١١١٧م)، أسرار التكرار في القرآن، ط٢، (تحقيق أحمد عبد القادر عطا)، دار الاعتصام، ١٩٧٦، ص١١٨.
(٢) انظر: السيوطي، المزهر، ج١، ص٣١٧.
(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (أنس)، ج١، ص١٤٥.

وأنواع المصالح. وقيل إنه من الناسي، إشارة إلى عهد آدم ـ عليه السلام ـ حيث قال Y: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً {١١٥})"(١)(طه:١١٥). ويظهر من الصفات السابقة أن كلمة (الإنسان) تشير إلى الصفات النفسية والخُلُقية لآدم ـ عليه السلام ـ.

أما كلمة (بشر): فتأتي ـ غالبا ـ للدلالة على الصفات الخَلقية للإنسان وشكله، فـ"قولنا البشر يقتضي حسن الهيئة، وذلك أنه مشتق من البشارة وحسن الهيئة...فسمي الناس بشرا لأنهم أحسن الحيوان هيئة"(٢). وقد تنبه الإمام الأصفهاني إلى هذا المعنى فقال: " وخُصَّ في القرآن كل لفظ اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر"(٣). وهذا ما وظَّفه التعبير القرآني عند خطاب الله Y ملائكته قائلا:(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨}) لتكتمل صورة آدم ـ عليه السلام ـ الخُلُقية(الإنسان) والخَلقية(البشر).

وأعاد التعبير القرآني لفظ البشر على لسان إبليس(قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣}) للدلالة على أن إبليس لما أراد الغضَّ من آدم ـ عليه السلام ـ اعتبر ذلك، وحكَّم وهمه " بإعطاء الشيء حكم وقعه في الحاسة الوهمية دون وقعه في الحاسة العقلية، وإعطاء حكم ما منه التكوين للشيء الكائن، ولم يعلم أن شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها، فكان مصرحا بتخطئة الخالق، كافرا بصفاته، فاستحق الطرد من عالم القدس"(٤).

هـ. (يوم الدين، يوم يبعثون، الوقت المعلوم)

قال Y: (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٣٧} إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٣٨})

إن التفسير العام لهذه العبارات الثلاث يجوِّز أن يكون المراد بالأيام الثلاثة يوم القيامة، وأن الاختلاف بينها إنما هو من أسلوب القرآن البلاغي في التفنن في العبارة، ومفاداة إعادة اللفظ اعتبارا لحق حسن النظم. لكن لنتأمل مواطن البلاغة في تصوير المعنى، واستيعاب كامل الدلالات؛ إذ في "اختلاف العبارات اختلاف الاعتبارات"(٥).

---

(١) انظر: الفيروزأبادي، ج١، مادة(أنس)، ص٣٢.
(٢) العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، ص ٢٢٨.
(٣) الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة(بشر)، ص٥٧.
(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص ٤٤ ، ٤٥، ٤٦ .
(٥) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١، ص٢١١.

أما (يوم الدين) فيعني "يوم الجزاء، ودانه دينا أي جازاه"[1]. وقد اقترن بلعنة إبليس، وفي هذا "إشعار بتأخير جزاء إبليس، وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله، وإنما يتحقق ذلك يومئذ. وفيه من التهويل ما فيه!"[2]. ثم إن في ضرب (يوم الدين) حدا للعنة الله Y الأبدية على إبليس إشارة إلى "أن يوم الدين منتهى أمد اللعن، فإنه يناسب أيام التكليف، فيعذب في (يوم الدين) ـ جزاء أفعاله ـ بما ينسي اللعن معه، فيصير كالزائل"[3]. فيجتمع لإبليس اللعن والعذاب.

وأما (يوم يبعثون) فهذه عبارة سيقت على لسان إبليس؛ لتصور "خبث جبلته البالغ نهاية الخباثة، إذ عقد العزم على إغواء البشر إلى آخر مدة وجود النوع الإنساني في الدنيا"[4]. فإبليس يريد أن يجد الفسحة لإغواء بني آدم، وأخذ ثأره منهم. وفي ذكر (البعث) تصوير لتبجح إبليس وتكبره؛ "إذ طلب النظرة إلى (يوم البعث)، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلى الله، ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم، ولكن لينتقم من آدم وذريته، جزاء ما لعنه الله وطرده، ليربط لعنة الله بآدم، ولا يربطها بعصيانه"[5]. ومما تحمله هذه العبارة من الدلالة، تصوير إبليس طامعا في النجاة من الموت، "إذ لا يموت يوم البعث أحد"[6].

وأما (يوم الوقت المعلوم)؛ فإنه قد أُخِّر لتضمنه العبارتين السابقتين مع ما يشعر بالتهديد؛ إذ إن يوم (الجزاء) الذي (سيبعث) فيه كل ما سوى الله Y (معلوم) ليس يخفى حتى ينكره جاحد. فالمراد المعلوم عند الله Y تفصيلا، وعند العقلاء إجمالا. وكل من لا يؤمن من الناس بذلك اليوم فإنه ليس من العقلاء، وهذا تعريض بالمشركين وفضح لهم. والوقت المعلوم ـ كذلك ـ هو ذلك اليوم الذي استأثر الله بعلمه، وجهله إبليس المتعالم الذي سيموت، فيبعث، فيجازى. وفي هذا تبكيت لإبليس لعنه الله Y.

و.(جئناك وأتيناك).

ولنتأمل في الفرق بين (جئناك وأتيناك) في قوله Y: (قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣} وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{٦٤}) تحكي الآيتان خطاب الملائكة لوطا ـ عليه السلام ـ، وقد صيغت بنظم عربي بليغ يؤكد للوط ـ عليه السلام ـ نزول عذاب الله Y الذي كان يَعِدُ به قومه، فيشُكُّون أنه نازل بهم، فلا يصدقونه.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة(دين)، ج٢، ص٤٣٩.
(٢) الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٤٧.
(٣) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١، ص٢١١.
(٤) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٤٨.
(٥) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٤١.
(٦) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٤١.

فقد جاء التأكيد على نزول هذا العذاب بتفنن في إيراد مادتي (المجيء) و(الإتيان) لما بينهما من عموم وخصوص ـ فـ"المجيء أعم من الإتيان"[١]ـ. وعبَّر بمادة المجيء أولا؛ لأنها "تقال اعتبارا بالمحصول"[٢]، وهذا يدل على أن العذاب أصبح أمر مقضيا. ثم ذكر مادة الإتيان؛ لتدل على أن العذاب سهل نزوله متى أراد الله ذلك، فـ"الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن فيه الحصول"[٣].

ومن الفروق التي بين الكلمتين "أن (جاء) يقال في الجواهر والأعيان، و(أتى) في المعاني والأزمان. ولذا قال Y: (بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣}) لأن العذاب مرئي يشاهدونه. وقال Y:(وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{٦٤}) حيث لم يكن الحق مرئيا"[٤]. والمراد بالحق: الإخبار بـ "الخبر اليقين من عذابهم"[٥].

ثانيا: المشترك اللفظي.

ويعني وجود لفظ واحد بمعان مختلفة، وقد حدَّه أهل اللغة "بأنه اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر"[٦]، وفيه يكون للكلمة " نفسها مجموعة من المعاني المختلفة"[٧].

وثمة عديد من المزايا للمشترك اللفظي في الاستعمال اللغوي؛ إذ هو يمثل واحدة من الطرق التي تجعل الكلمات أكثر حيوية حين تؤدي الكلمة الواحدة أكثر من معنى، وأكثر من وظيفة. ويأتي نتيجة "الاستعمال المجازي للألفاظ، وتطور المعاني وتغيرها مع الاحتفاظ بالأصوات"[٨].

وبدراسة أمثلة من المشترك اللفظي في سورة (الحِجر) تأكَّدَ " أن ما وقع في القرآن الكريم من المشترك اللفظي جُلُّه مما نلحظ فيه الصلة المجازية، كالعين: للباصرة، ولعيون الأرض"[٩]. ومهما يكن من أمر، فإني قد اجتهدت في الكشف عما يحمله المشترك اللفظي في السورة من معانٍ ودلالات بلاغية. ومنها:

---

(١) الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج٢، ص٤١٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤١٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٤١٢.
(٤) الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ/ ١٤٠٦م)، البرهان في علوم القرآن، ط٢، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢، ج٢، ص٤٧٦.
(٥) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ٥٤٥.
(٦) السيوطي، المزهر، ج١، ص٣٦٩.
(٧) بالمر، علم الدلالة، ص ١١٦.
(٨) أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥، ص ١٩٣.
(٩) أنيس، دلالة الألفاظ، ص٢١٥.

أ. إكساب اللفظة درجة عالية من الحجة والبرهان.

ومثال ذلك، كلمة (آية) التي وردت في سياقات مختلفة، أكسبتها معاني واضحة القوة، ساطعة الدلالة على أن كلام الله Y دليل على وحدانيته، وصدق رسوله ε. وبيانه: أن الآية لغة: "العلامة الظاهرة "[١]. ووردت في السورة على ثلاثة أوجه[٢]: آيات القرآن، قال Y: (الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}). وآية الدليل والحجة، قال Y: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥})، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ{٧٧}) وآية المعجزة، قال Y: (وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٨١}).

يبتدئ السياق القرآني بالمعنى الأول للآية، وهو آيات القرآن، قال Y: (الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}) والمعنى:" تلك آيات ذلك الكتاب الكامل"[٣]. ووقوعها في مفتتح السورة إشارة إلى تحدي المكذبين بالقرآن الكريم؛ باستدعائهم للنظر في آياته الدالة على صدق الرسول ε، وحقية دينه. وهذا ما لم يفعله المكذبون؛ إذ ظلوا في غلوائهم سادرين. فأعاد التعبير القرآني عليهم اللفظة نفسها وقد أخذت معنى آخر يقوي ما ألمحت إليه اللفظة الأولى من أن كلام الله Y دال على وحدانيته، وصدق رسوله ε. قال Y: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥}) والآيات: الأدلة والبراهين، والإشارة (في ذلك) إلى جميع ما تضمنته القصة المبدوءة بقوله Y:(ونبئهم عن ضيف إبراهيم{٥١})، ففيها من الآيات: آية نزول الملائكة في بيت إبراهيم ـ عليه السلام ـ كرامة له، وبشارته بغلام عليم، وإعلام الله إياه بما سيحل بقوم لوط كرامة لإبراهيم عليهما السلام، ونصر الله لوطا والملائكة، وإنجاء لوط ـ عليه السلام ـ وآله، وإهلاك قومه وامرأته لمناصرتها إياهم، وآية عماية أهل الضلالة عن دلائل الإنابة، وآية غضب الله على المسترسلين في عصيان الرسل. ثم تكرر هذا المعنى في قوله Y:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ{٧٧}).

ولما لم ينته المكذبون عن إفكهم، ختم التعبير القرآني لفظ (آيات) بمعنى المعجزة(وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٨١}) والآيات هي: "المعجزات من الناقة، وسقيها، وشربها، ودرِّها"[٤]؛ ليعطي الآيات القرآنية من الحُجَّة ما يدلل على أن آيات القرآن البيانية إنما هي

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة(أيا)، ج١، ص١٤٢.
(٢) وهذه الأوجه الثلاثة هي من اثني عشر وجها ترد عليه لفظ (آية) في القرآن الكريم، أحصاها العلامة الفيروزأبادي. انظر: الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، ج٢، ص٦٥،٦٦.
(٣) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص ٤٢٢.
(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣، ص ٣٢٣.

معجزات واضحة، مثلها مثل المعجزات الحسية الأخرى في ظهور حجتها، وقوة دلالتها على وحدانية الله Y، وصدق رسوله ε، ولكن المكذبين لا يعقلون.

ب. شمول القدرة الإلهية وسعتها.

ومن الأمثلة على المشترك اللفظي في السورة الفعل(نَزَلَ) الذي جاء ليعبر بصيغه المختلفة، ومعانيه المتنوعة عن شمول قدرة الله سبحانه، وفعله الناجز.

و(النزول) الانتقال "من علو إلى سُفل"(١). ودارت في فلك هذا المعنى أربع سياقات لكلمة (النزول)، دلَّت على شمول قدرة الله Y وسعتها. وهي:

الأول: قال Y: (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨}). والمراد بنزول الملائكة هنا انتقالهم من العوالم السماوية إلى العالم الأرضي انتقالا مخصوصا، لتنفيذ أمر الله Y، نحو إهلاك المكذبين وتدمير قراهم.

والثاني: قال Y: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}) والنزول "حقيقة في انتقال الذوات من علو، ويطلق الإنزال ومادة اشتقاقه بوجه المجاز اللغوي لاعتبار شرف ورفعة معنوية، كتشبيه المعاني التي تلقى إلى النبي ε بشيء وصل من مكان عال، ووجه الشبه هو الارتفاع المعنوي لاسيما إذا كان الوحي كلاما سمعه الرسول كالقرآن"(٢)، والمقصود من الآية الرد على المشركين في استهزائهم، قال Y:(وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}) فأظهر الله لهم قدرته، وأنه " نحن بعظم شأننا، وعلو جانبنا، نزّلنا الذي أنكروه"(٣).

والثالث: قال Y: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١}). وقد فُسر الإنزال في الآية تفسيرات عدة فقيل: "الإعطاء، والإنشاء، والإيجاد. والمعنى متقارب"(٤) والحاصل، أنه " ما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده، وتكوينه، والإنعام به"(٥).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة(نزل)، ج٦،ص١٧٢.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص١٣٨.
(٣) الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص١٦.
(٤) الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص١٢٧.
(٥) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ٥٣٨.

والرابع: قال Y: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢}). والمراد بالماء هنا: المطر، ونزوله من السحاب، وعبَّر بالسماء، إما لأن كل ما أظلك فهو سماء، أو لأن المطر من جهة السماء[1]، وهذا من دلائل التوحيد السماوية الدالة على قدرة الله Y وسعتها.

ج. الدلالة على سبيل تحصيل رضى الله Y واجتناب سخطه.

وذلك في كلمة (السَّاجِدِينَ) التي جاءت في سياقيين مختلفين، وردت مرة بمعنى الملائكة. قال Y: (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠} إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣١})، ووردت ثانية بمعنى: المُصلِّين[2]. قال Y: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨})

وهي في كلتا الآيتين تضمنت الوصف، ففي الأولى دلت على أهم صفة من صفات الملائكة وهي امتثال أوامر الله Y (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ {٣٠}) وهذا عنوان على طاعة الملائكة. وفي الثانية دلت على صفة المؤمنين الذين أُمِر رسول الله ε أن يكون فيهم، وهم المصلّون.

وفي توظيف الكلمة نفسها للتعبير عن هذين المعنيين في السورة مدعاة للربط بينهما، وللكشف عن الدلالة الإضافية التي يؤديها أحدهما للآخر. وتتمثل هذه الدلالة في التأكيد على أن الملائكة إنما نجوا من غضب الله Y بامتثالهم أمره سبحانه بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ، بينما خسر إبليس إذ أبى، فاستحق اللعنة والطرد. وكذا فإن على المؤمن الذي يرجو رضوان الله Y، ويخشى سخطه ـ سبحانه ـ الالتزام بأوامره Y، لاسيما الصلاة منها، إذ هي عمود الدين، وركنه المتين.

د. الدلالة على إمهال الكافرين، ثم أخذهم.

ترد بعض الأفعال أحيانا في سياقات مختلفة، ويكون لورودها المعنى العميق، والفكرة المهمة، فالفعل (أرسل) ـ والإرسال: "مجاز في نقل الشيء من مكان إلى مكان"[3] ـ ورد في سورة (الحِجر) وقد أريد به ثلاث معان: الأول، إرسال الأنبياء للهداية. قال Y:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن

(١) انظر، الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص١٢٧.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص١٤٤.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٣٧.

قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١}). والثاني: إرسال الرياح للخير. قال Y: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢}) والثالث: إرسال الملائكة للعذاب. قال Y: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ{٥٧} قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨}).

ولعل الدلالة التي تجمع هذه المعاني، هي إمهال الله Y الكافرين قبل أخذهم والانتقام منهم؛ فالله Y يرسل (لهم) الأنبياء مبشرين ومنذرين، فما يستجيبون. ثم إنه Y يدلل لهم على وحدانيته، ويبين لهم فضله، بأن يرسل (لهم) رياح الخير؛ فتلقح السحاب والشجر، فتجودان بالماء والثمر[١]، لعلهم يرشدون. ولأنهم - بعد هذا - على كفرهم باقون، استحقوا أن يرسل الله Y (عليهم) ملائكته بالعذاب الأليم، (فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٤}).

ثالثا: التضاد والمقابلة.

التضاد والمقابلة نوعان من أنواع البديع، وأكثر البلاغيين على أن معنى التضاد: "أن يذكر الشيء وضده، كالليل والنهار، والسواد والبياض"[٢]. وللتضاد أسماء أخرى، فـ" يقال له: الطباق، والتكافؤ، وحاصله الإتيان بالنقيضين والضدين"[٣]. وهذا النوع شديد الاتصال بالمعنى، إذ يقع ضمن المحسنات المعنوية التي يكون التحسين فيها راجعا إلى المعنى أولا.

وجمهور العلماء يفرقون بين الطباق والمقابلة، بناء على عدد المعاني المتقابلة، فـ"المقابلة عندهم أن يؤتى بمعنيين فأكثر ثم بما يقابل هذه المعاني. أما الطباق فلا يكون إلا بين معنى واحد وما يقابله"[٤].

وقد تناولت في دراستي التضاد والمقابلة معا، دون الفصل بينهما؛ لأنهما "من حيث الموضوع شيء واحد"[٥]، ومعانيهما تكاد تكون متشابهة. وغايتي هي الكشف عن المعاني العميقة والدلالات البلاغية المستقاة منهما. ومن هذه الدلالات:

---

(١) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج٣، ص ١٠٠.
(٢) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب(ت٤٠٣هـ/ ١٠١٥م)، إعجاز القرآن، ط٣، (تحقيق السيد أحمد صقر)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٤، ص٨٠.
(٣) العلوي، الطراز، ج٢، ص٥٦٤.
(٤) عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، ط٧، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٠، ص٢٧٨.
(٥) المرجع نفسه، ص٢٧٨.

أ. تأكيد المعنى وإبرازه.

يساهم التضاد في تأكيد المعنى، وإبرازه بصورة أقوى. ومن الأمثلة على ذلك، التضاد بين (تَسْبِقُ) و(يَسْتَأْخِرُونَ) في قوله Y:(وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥}). فالآية الكريمة تؤكد سنة الله التي لا تتخلف أبدا في إهلاك الكافرين. فما من أمة أهلكت إلا وقد تمتعت زمنا، ثم نزل بها الهلاك في الوقت المحدود، فلا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه.

وكذلك، يؤكد التضاد بين (نُحْيِي) و(نُمِيتُ) على عِظم قدرة الله سبحانه، قال Y: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ{٢٣}) أي أنه "لا قدرة على الإحياء والإماتة إلا لنا"(١). ويؤكد التضاد بين (الْمُسْتَقْدِمِينَ) و(الْمُسْتَأْخِرِينَ) على كمال علم الله سبحانه بالأمم البائدة والأمم الحاضرة، قال Y: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤}) "قال ابن عباس: المستقدمين: الأموات، والمستأخرين: الأحياء. وقال الشعبي: الأولين والآخرين. وقال عكرمة: المستقدمون: من خلق الله، والمستأخرون: من لم يخلق"(٢).

ويبرز التضاد بين (السماء وبروجها) و(الأرض ورواسيها) معاني دلائل وحدانية الله Y، قال Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦}) (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩}).

ب. إنشاء مقارنة بهدف التبيين والوعظ.

وقد يُحدِث التضاد مقارنة بين نقيضين؛ ليزيد من الترغيب في أحدهما، والتنفير من الآخر، وذلك باستحضارهما معا، بما يشتمل عليه أحدهما من الصفات المثالية، وما ينطوي عليه الآخر من صفات السلب والقصور.

ولنتأمل التضاد الواقع بين (الَّذِينَ كَفَرُواْ) والـ(مُسْلِمِينَ) في قوله Y: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢}). و"الكافر متعارَف مطلقا فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة"(٣)، والمسلم خلافه. وسورة (الحِجر) من السور التي تستهدف هذه المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية.

---

(١) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص٤٤٨.
(٢) المصدر نفسه، ج١١، ص٤٤٩.
(٣) الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج٤، ص ٣٦١.

ولعل في هذا التضاد براعة استهلال؛ إذ بدأ السرد في السورة بكل من الوصفين المتنافرين (كفروا) و(مسلمين)، وهما لم يردا صريحين إلا في هذا الموضع حسب، ثم امتد التضاد بما يتضمنه اللفظان من صفات ليجيء على مستوى السورة كلها؛ إذ السورة وحدة دلالية كبرى، تتصف بالترابط بين موضوعاتها وأجزائها. وهذا الامتداد لا يغير من حيوية التضاد وفاعليته، بل ينشيء مقارنة بين اللفظين من كافة النواحي، سواء من حيث الهداية والضلال، أو العاقبة والمصير؛ لتزيين الإسلام وأهله، وفضح الكفر وأهله. ونستطيع توضيح هذا التضاد بالجدول الآتي:

صفات (الَّذِينَ كَفَرُواْ)	صفات الـ (مُسْلِمِينَ)
(ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣})	(إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠})
(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{١٢} لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣})	(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥} ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ{٤٦} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧} لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ{٤٨})
(.... إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢} وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٣} لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ{٤٤})	(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩})
	(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ{٧٧})
(قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ{٥٦})	(لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩})
(قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨})	(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{٩٩})
(وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ{٧٨})	
(وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٨١})	
(الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١})	
(... وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦})	

وتمتد المقابلة على مستوى السورة ـ بما يؤكد تناسقها ـ لتنشئ مقارنة أخرى بين نماذج من رحمة الله Y وعذابه، قال Y: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩} وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{٥٠}).

وهذا تصدير للنماذج التي سيرد بعضها مصداقا لنبأ الرحمة، وبعضها مصداقا لنبأ العذاب، وتقديم نبأ المغفرة والرحمة على نبأ العذاب بناء على ما ارتضت مشيئة الله Y؛ فقد كتب على نفسه الرحمة.

والرحمة ممثلة في قصص إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبشارته على الكبر بغلام عليم (قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ{٥٣})، وقصة لوط ــ عليه السلام ـ ونجاته وأهله إلا امرأته (قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠}).

والعذاب ممثل في الهلاك الذي حَلَّ بقوم لوط (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ{٧٣} فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{٧٤})، وأصحاب الأيكة (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ{٧٩})، وأصحاب الحِجر (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{٨٣}).

ج. إهلاك قوم لوط ــ عليه السلام ـ بما يناسبهم.

يصور التضاد بين (عاليها) و(سافلها) في قوله Y: (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{٧٤}) مشهد هلاك قوم لوط ـ عليه السلام ـ بقلب مدينتهم عليهم. "وضميرا (عاليها) و(سافلها) للمدينة"[1]. فعذاب (القلب) هذا يتناسب وطبائعهم المقلوبة؛ وفطرهم المرتكسة؛ إذ رضوا لأنفسهم فعل الفاحشة الشاذة من إتيان الذكور شهوة من دون النساء.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٦٩.

الفصل الثالث: المستوى الصرفي والنحوي.

المستوى الصرفي.

المستوى النحوي(التركيبي).

توطئة.

لعل من المفيد الإشارة إلى الصلة الوثيقة بين علمي الصرف والنحو، مما جعل دراسة القدماء لهما تتسم بالتداخل، وقد أوضح أبو عثمان المازني متانة الصلة بينهما قائلا: "التصريف إنما ينبغي أن ينظر فيه من قد نقب في العربية؛ فإن فيه إشكالا وصعوبة على من ركبه غير ناظر في غيره من النحو"(١). فأبرز ما يستنتج من كلام المازني اشتراطه التزود بعلم النحو، واتخاذه وسيلة لدرس المسائل الصرفية. لكن سنفصل بين المستوى الصرفي والمستوى النحوي في دراسة السورة، معتمدين في ذلك على الأساس الذي تقوم عليه الدراسات الأسلوبية من النظر في الدلالات البيانية والمعاني البلاغية التي ترشح عن صيغ الكلمات، وتراكيب الجمل التي تتشكل في أنماط لغوية متعددة، أفاضت كتب البلاغة في الحديث عنها.

ونظرا لكثرة هذه الصيغ والأنماط اللغوية، فإن الوسيلة الفعالة في استكشافها البروز الأسلوبي؛ فمن تعريفات الأسلوب: "إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها بحيث إذا غفل عنها شوّه النص، وإذا حلّلها وجد لها دلالات تمييزية خاصة، مما يسمح بتقرير أن الكلام يعبّر، والأسلوب يبرز"(٢). فالدراسة تتناول الصيغ والأنماط الأكثف شيوعا وتواترا، "وهي تشكل لغة داخلية تفيض بالدلالات، والتأثير في نفوس الناس"(٣). وذلك على المستويين الصرفي والنحوي.

---

(١) انظر: ابن جني، المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني، ط١، (تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين)، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤، ج٢، ص٣٤٠.
(٢) المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، ط٢، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٢، ص٨٣.
(٣) أبو عودة، البيان القرآني: مفهومه ووسائله، ص٧١.

المستوى الصرفي.

تعتمد دراسة جماليات النظام الصرفي في سورة(الحِجر) على "بيان الوظيفة الجمالية والفعالية التركيبية للصيغة، ودور تشكيلات الصيغ، وتشكيلات العناصر الأخرى من النظام الصرفي في التركيب"(١). وسندرس صيغا من بنية الأسماء، وصيغا من بنية الأفعال في صورتيها المفردة والمركبة، وأثرهما في البيان القرآني.

أولا: بنية الأسماء.

تشكل الأسماء في سورة (الحِجر) مادة صرفية ثرية؛ إذ ترد في سياقات متباينة تحمل صيغا مختلفة، مما يؤدي إلى تعدد المعاني ودلالاتها. وهذا النوع من الأسماء يعدّ أصلا من أصول البحث الصرفي الحديث، يقول كمال بشر: "ويتمثل هذا النوع في أبواب وبحوث هي من صميم الصرف بالمعنى الذي نفهمه. ونعني بذلك تلك الدراسة التي تعرض لدراسة الكلمات وصورها لا لذاتها، وإنما لغرض معنوي أو للحصول على قيم صرفية تفيد في خدمة الجمل والعبارات. ومن أهم أبواب الصرف هنا المشتقات، وتقسيم الفعل إلى أزمنته المختلفة، والتعريف والتنكير وأقسامها....الخ، فالبحث في هذه المسائل وأمثالها بحث صميم؛ إذ يخدم الجملة، ويجعلها ذات معان مختلفة، بحيث لو تغيرت وحداتها تغيرت معانيها"(٢). وقد ورد في سورة (الحِجر) أكثر هذه الضروب من التصريف، نسعى فيما يأتي لتتبعها وتتبع أثرها الدلالي والجمالي.

١. التنكير.

تعد النكرة من الصيغ الصرفية التي تعتمدها سورة (الحِجر)، ووردت في سياقات مختلفة، وقد حملت دلالات متفردة. أبرزها: التعميم والتفخيم والتكثير والتقليل.

أ. التعميم.

يرتبط معنى التعميم أو الاستغراق في السورة بمعان متعددة، أفادتها النكرة حسب السياق الواردة فيه؛ إذ " ما يذكره علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة، فإنها لم تفدها بطبيعتها، وإنما استفادتها من المقام الذي وردت فيه، فكأنما المقام هو الذي يصف النكرة ويحددها"(٣). والملاحظ على النكرات التي أفادت التعميم ـ في السورة ـ أنها التزمت في الأغلب الأعم نمطا

---

(١) تليمة، عبد المنعم، مدخل إلى علم الجمال الأدبي، عيون المقالات، ط٢، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧، ص٧٢.
(٢) بشر، كمال محمد، مفهوم علم الصرف، مجلة مجمع اللغة العربية، ج٢٥، القاهرة، ١٩٦٩، ص١١٠، ١١١.
(٣) بدوي، من بلاغة القرآن، ص١٢٨.

واحدا في نظامها الصرفي، حيث تسبق بأداة نفي. وهذا النمط " تركيب عام؛ لوقوع النكرة في حيز النفي"[١].

ومن أمثلة التعميم، كلمة (رَّسُولٍ) في قوله Y: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١}). والمعنى " أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - الاستهزاء بهم، كما فعلوا بك، ذكره تسلية للنبيε"[٢].

ومن التعميم، قوله Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥}). تضمنت الآيتان بروز نكرتين (قرية، أمة)، - "مع ما في الأمة من العموم لأهل تلك القرى"[٣]- اكتسبتا قيمة صرفية أفادت أن لا أحد يفلت من عذاب الله Y، وفي هذا أشد التهديد والوعيد.

ومن الأمثلة، قوله Y: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١}). اعتمدت الآية على (شيء) وهي أعم الوحدات الصرفية الدالة على العموم والشيوع[٤]، فأفاد ذلك أن الأشياء كلها عند الله خزائنها، ولا يخرج شيء منها.

ولست أرى تخصيص كلمة (شيء) بمعنى (المطر) نحو ما جاء عند بعض المفسرين[٥]؛ إذ المقام يقتضي العموم، والآية سيقت في معرض الحديث عن عموم دلائل التوحيد السماوية والأرضية. بله بعض القرائن البارزة التي ضمها السياق في الآيات السابقة، وهي تفيد معنى العموم، نحو: (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ، مَعَايِشَ، وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) في قوله Y: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠}).

ومن الأمثلة، كلمة (إِخْوَاناً) في حق أصحاب الجنة تشبيها لهم بحال الإخوان في الدنيا، قال Y:(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧}). وهذه نكرة أفادت عموم

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص١٢٦.
(٢) ابن عادل ، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص٤٣٤.
(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٣، ص٢٩٢.
(٤) انظر: ابن جني، اللمع في العربية، (تحقيق فائز فارس)، دار الكتب الثقافية، الكويت، ص٩٨.
(٥) انظر هذا التأويل: ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص٤٤٤.

أهل الجنة، "وأول من يدخل في هذا العموم أصحاب النبيε فيما شجر بينهم من الحوادث الدافع إليها اختلاف الاجتهاد في إقامة مصالح المسلمين، والشدة في إقامة الحق حسب اجتهادهم"(1).

ومن التعميم المعتمد على النفي، قوله Y: (لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ{٤٨}). وهذه حال أهل الجنة؛ "حيث ينتفي عنهم كل ما كانوا يعانونه في الدنيا من التكاليف، ومعاشرة الأضداد، وعروض الآفات والأسقام، وإذا انتفى المس، انتفت الديمومة"(2).

ب. التفخيم والتعظيم.

يُعدُّ التفخيم سمة أسلوبية في تعبير النص القرآني، وتبرز هذه السمة في سورة (الحِجر) في قوله Y: (الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}). وفي العطف بين العلمين إشارة إلى أن في كل منهما معنى ليس في العلم الآخر، ولأن مقام الآية التنويه بفضل القرآن وهديه، فإن التفخيم حري بإبراز هذا المعنى، لا سيما أنه " أريد وصف (القرآن) بالمبين، والمنكر أنسب بإجراء الأوصاف عليه، ولأن التنكير يدل على التفخيم والتعظيم"(3).

ومن التعظيم، قوله Y:(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}) . فالله Y ذو حكمة عظيمة، وعلم محيط. ومنه، قوله Y: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥}). وهذه " جنات وعيون مقرونة بالتعظيم"(4).

ومنه، قوله Y: (قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ{٥٣}). أي ذو علم كثير، وأريد بالنكرة تعظيم هذا الغلام إشارة إلى أنه يكون نبيا، فهو نحو قوله Y: (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ){الصافات:١١٢}.

ومنه، قوله Y: (وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢}). وهؤلاء النحات هم أصحاب الحِجر قوم صالح ـ عليه السلام ـ، والتنكير في (بيوتا) يصور فخامتها وعظمتها حتى ظنوا أنها مانعتهم من عذاب الله Y، حيث قال الله Y مصورا حالهم هذه: (وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ {٧٧})(الأعراف:٧٧).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٥٥،٥٦.
(٢)أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٥٤هـ / ١٣٣٣م)، تفسير البحر المحيط، (طبعة جديدة بعناية الشيخ زهير جعيد)، دار الفكر، بيروت، ج٦، ص٤٨٣.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٨.
(٤)انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج٦، ص ٤٨٣.

ومنه، قوله Y: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧}). وهذه آية في سياق ذكر نعم الله Y العظيمة على نبيه محمدε، ويبرز التنكير(سبعا) بين المعارف (المثاني، القرآن، العظيم) ليفصح عن عظم هذه السبع، وهي سورة الفاتحة في رأي أكثر المفسرين(١).

ج. التحقير.

وبرز معنى التحقير في قوله Y:(قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨}). وهم قوم لوط _ عليه السلام ـ، وذكرهم التعبير القرآني على طريق التنكير استهانة بهم، وذما لهم.

د. التكثير.

ومن معاني النكرة في سورة (الحِجر) التكثير، وهو من الدلالات التمييزية في السورة، نحو قوله Y: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢}). فإن كلمة (ماء) جاءت نكرة لتفصح عن كثرة الماء الذي لا ينفد من خزائن الله Y وهو الذي يَمنُّ به على خلقه، " والفرق بين التعظيم والتكثير، أن التكثير يكون في الكمية، أما التعظيم فيكون في الكيف"(٢).

هـ. التقليل.

وردت النكرة في سورة (الحِجر) متضمنة دلالة التقليل، قال Y: (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨}). وأزواجا هنا نكرة تدل على أن التمتع الذي تتطلع إليه العين ليس ثابتا لجميع الكفار بل لقلة منهم، وإن من الكفار من هم في حالة فقر وخصاصة. ولعل دلالة هذا أن يعتبر المسلم من حال الكفار، كيف أنّ الله Y جمع لهم الكفر وشظف العيش، فيحمد الله Y على نعمه العظيمة، وأعظمها الإسلام.

---

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص٢٠٧

(٢) عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، ط١٠، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٥، ص٣٤٣.

٢. التعريف.

للتعريف حضور بارز في سورة (الحِجر)، وله نشاطه المميز في إبراز معان سياقية، تكشف للمتأمل فيها دلالات متنوعة وأبعادا جمالية. وسبيلنا في رصد الأسماء المعرفة في السورة هو تقسيمها إلى الضمائر، والأعلام، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، والمعرف بـ(ال)، والمضاف إلى واحد من هذه. "وهي متفاوتة في التعريف، فأعرفها المضمرات، ثم العلم..."[١]. وهذه المعارف منها ما يتميز عن غيره بخصائص تجعل سياق النص الأدبي يختار نوعا دون غيره من هذه الأنواع؛ فـ" لكل أداة من أدوات التعريف طعم ومذاق يختلف عن الآخر، والذي يحدد الاختلاف ثقل الكلمة، ومكانها، وقيمتها المختلفة عند المخاطب"[٢].

ونظرا للقيمة الأسلوبية للضمائر وكثرة شيوعها في سورة الفرقان؛ فإننا نتناولها بالدراسة أولا.

أ. الضمير.

توظف سورة (الحِجر) الضمير في سياقات شتى للتعبير عن بعض المقاصد المعنوية، وهي في توظيفها له تحاول الخروج به عن دلالته الأصلية إلى دلالات تمييزية أخرى لعل أهمها:

١. توحيد الله Y في أفعاله.

يعمد التعبير القرآني في سورة (الحِجر) إلى حذف الاسم إذا تقدم ذكره، أو قامت قرينة معنوية تدل عليه؛ "وذلك لأنك لا تضمر الاسم إلا بعد تقدم ذكره، ومعرفة المخاطب على من يعود، أو تفسير يقوم مقام الذِّكر"[٣].

ومن أبرز استعمالات الضمير وحذف معاده، ضمير جماعة المتكلمين الذي تكرر إحدى وأربعين مرة في سياق الحديث عن أفعال الله Y، ومن المسترعي للانتباه أنه لم يعد على اسم ظاهر (لفظ الجلالة)، وإنما القرينة المعنوية هي التي قامت مقام لفظ الجلالة؛ إذ جاء ضمير جماعة المتكلمين مقترنا بأفعال هي من خصائص أفعال الله Y حسب، وهي: إهلاك الأمم الظالمة، قال Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}). وإنزال الملائكة، قال Y:(مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨}). وإنزال القرآن الكريم، قال Y:(إِنَّا نَحْنُ

---

(١) العلوي، الطراز، ج٢، ص١١.
(٢) السلطان، منير، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص٥٧،٥٨.
(٣) ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي(٦٤٣هـ /١٢٥٥م) شرح المفصل للزمخشري، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج٣، ص٥٦.

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). وإرسال الرسل ـ عليهم السلام ـ، قال Y: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠}).

ثم برز ضمير جماعة المتكلمين في معرض الحديث عن دلائل التوحيد والسماوية والأرضية؛ ليؤكد البيان القرآني أن لا خالق في هذا العالم إلا الله Y، وهذا ما دأب المشركون على إنكاره، قال Y:(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦} وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨} وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١} وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢} وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ{٢٣} وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤}). ثم قال Y:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦} وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{٢٧}).
ومن الأفعال الإلهية التي اتصل بها الضمير قوله Y:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤}).

(وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ{٦٦}).

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{٧٤}).

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ{٧٩}).

(وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٨١})

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧} لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨}).

(كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{٩٠}).

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥}).

٢. دلالة ضمير الفصل.

تتضمن سورة (الحِجر) استخدام ضمير الفصل ـ الذي " يتوسط بين المبتدأ وخبره قبل دخول العوامل اللفظية وبعده"[(١)] ـ في المقام الذي يقتضي دلالة التأكيد والقصر. وذلك في أربعة مواطن تعلقت بعقيدة التوحيد؛ إذ السورة مكية.

(١) الزمخشري، المفصل في علم العربية، ط٢، دار الجيل، بيروت، ص١٣٣.

الأول: قال Y: (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}). والحشر مما كان يستنكره المشركون، ويقولون: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)(ق:٣)؛ فأكدت الجملة بضمير الفصل (هُوَ)؛ لرد هذا الإنكار الشديد. "وتوسيط ضمير العظمة؛ للدلالة على أنه هو القادر على حشرهم، والمتولي له لا غير"[1]. وأن الله ـ سبحانه ـ وحده العالم بعددهم مع إفراط كثرتهم، وتباعد أطرافهم.

والثاني: قال Y: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩} وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{٥٠}). فضميرا (أَنَا) و(هُوَ) ضميرا فصل يفيدان تأكيد الخبر. فقد أكد ضمير (أَنَا) وعد الله Y رحمة عباده، فلا راحم يومئذ إلاه. وأكد ضمير (هُوَ) وعيد الله Y. "وفي توصيف ذاته ـ سبحانه ـ بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده"[2].

والثالث: قال Y: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦}). ويستفاد من ضمير الفصل (هُوَ) التأكيد على أن الله Y وحده خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم، وتفاوت أحوالهم، مع علمه بكونهم كذلك.

والرابع: قال Y: (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩}). "والقصر المستفاد من ضمير الفصل، قصر قلب[3]، أي كما تحسبون أنكم تغيظونني بعدم إيمانكم فإني نذير مبين غير متقايض معكم لتحصيل إيمانكم"[4].

٣. تعدد عوائد الضمير دون تناقضها.

من خصائص خطاب القرآن الكريم أنه حمّال أوجه، ذو معان متعددة. والبحث هنا منصب على ضمائر يصح لها أكثر من عائد ـ وإن كان منها ما هو مرجَّح ـ مما يعطي دلالات أوسع، ومعانيَ أعمق.

ومن الأمثلة التي تعددت فيها العوائد تعددا بارزا قوله Y:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{١٢} لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣} وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤}).

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٣، ص٣٠٣.
(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١، ص٢١٢.
(٣) قصر القلب يعني: أن يعتقد المخاطب عكس ما تقول فتأتي بالقصر لنقلب معتقده رأسا على عقب. انظر: عباس، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، ص٣٧٩.
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٨٣.

يقول الفخر الرازي: "المسألة الثانية: الضمير في قوله: (لَهُ لَحَافِظُونَ) إلى ماذا يعود؟ وفيه قولان: القول الأول: إنه عائد إلى الذِّكر، يعني: وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان. والقول الثاني: أن الكناية في قوله (له) راجعة إلى محمد ε، والمعنى وإنا لمحمد ε حافظون؛ فإنه لما ذكر الله الإنزال والمنزَل دل ذلك على المنزَل عليه فحسنت الكناية عنه، إلا أن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل. والله أعلم."(١)

وتعددت عوائد ضميري الغائب (الهاء) في (نَسْلُكُهُ) و(لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) لتتسع المعاني والدلالات، يقول أبو حيان الأندلسي : "قال ابن عطية: الضمير في (نَسْلُكُهُ) عائد على الاستهزاء والشرك ونحوه. ويكون الضمير في (بِهِ) يعود ـ أيضا ـ على ذلك نفسه، وتكون باء السبب؛ أي لا يؤمنون بسبب شركهم واستهزائهم. ويحتمل أن يكون الضمير في (نَسْلُكُهُ) عائدا على الذكر المحفوظ المتقدم الذكر وهو القرآن، أي مكذبا به مردودا مستهزأ به، يدخله في قلوب المجرمين، ويكون الضمير في (بِهِ) عائدا عليه. ويحتمل أن يكون الضمير في نسلكه عائدا على الاستهزاء والشرك، والضمير في (به) يعود على القرآن، فيختلف على هذا عود الضميرين"(٢). والذي يرجِّح عود الضميرين إلى الذكر ـ والله أعلم ـ ؛ إذ المعنى " هكذا نولج القرآن في عقول المشركين، فإنهم يسمعونه ويفهمونه إذ هو من كلامهم، ويدركون خصائصه، ولكنه لا يستقر في عقولهم استقرار تصديق به بل هم مكذبون به. وبهذا السلوك تقوم الحجة عليهم بتبليغ القرآن إليهم، ويعاد إسماعهم إياه المرة بعد المرة لتقوم الحجة"(٣).

ومما جاء في الآيات ضمير واو الجماعة في (ظَلُّواْ)، وللمفسرين في عائده قولان: "الأول: أن قوله (فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤}) من صفة المشركين. والقول الثاني: أن هذا العروج للملائكة"(٤). فرشح عن الآية معنيان يفصحان عن وحدانية الله Y وقدرته، فالله Y قادر على أن يصعد بالمشركين إلى حيث لا يستطيعون أن يصلوا، أو يريهم بأم أعينهم ملائكته الكرام ينزلون ويصعدون من السماء، ولكن المشركين سيجحدون أن لو كان شيء، كما جحدوا سائر معجزات النبي ε.

---

(١)الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٦٠.
(٢)انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج٦، ص ٤٦٩.
(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٢٤،٢٥.
(٤)الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٦٧.

ومن الأمثلة، قوله Y آمرا إبليس بعد رفضه السجود:(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤}). وضمير (منها) يجوز أن يعود إلى " السماء أو الجنة أو زمر الملائكة"[١]. وبعيدا عن اختلاف المفسرين في تحديد عائده نجد أن في العوائد الثلاث اشتراكا يمثل عالم القدس والنزاهة. فإبليس الذي خبثت نفسه، وتلوثت طويته، استحق الطرد من هذا العالم القدسي.

ومن الأمثلة، قوله Y: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ{٧٢}). وهذه جملة وردت في سرده Y لقصة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه. وهي إما أن تكون معترضة أو لا. فإن لم تكن معترضة يجوز أن يعود ضمير (لَعَمْرُكَ) إلى لوط ـ عليه السلام ـ أو النبي ε، ويكون القسم من الله Y بحياة النبي ε، أو من الملائكة بحياة لوط ـ عليه السلام ـ، مما يدل على أن حياة الأنبياء عظيمة، ويكون ضمير (سَكْرَتِهِمْ) عائد إلى قوم لوط ـ عليه السلام ـ. وإن كانت معترضة يكون القسم من الله Y أو الملائكة بحياة النبي ε حسب، وضمير (سَكْرَتِهِمْ) عائد إلى كفار قريش. مما يدل على عدم جدوى الموعظة فيمن يكون في سكرة هواه، في أي زمان كان، وإن أرسل الله Y له الرسول تلو الرسول، وفي هذا تسلية للنبي ε.[٢]

ب. العَلَم.

العَلَم: "هو الذي يعيِّن مسماه مطلقا، تمييزاً له من غيره. وحكم الكنى والألقاب حكمُ الأعلام في المقصود بها"[٣]. وللتعبير القرآني أغراضه من انتقاء أحدها: الاسم، أو اللقب، أو الكنية. وما ورد في السورة نوعان: الاسم الظاهر، واللقب حَسب.

أولا: الاسم الظاهر.

ومما جاء من الأسماء الظاهرة:

١. أسماء الله الحسنى.

وهي تحمل معنى المدح. ومنها، لفظ الجلالة (الله). وقد ورد في سياقين، الأول: قوله Y: (وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ{٦٩}). وهذه جملة سيقت على لسان لوط ـ عليه السلام ـ مخاطبا قومه الخُبُث مذكرا بالوازع الديني إتماما لدعوته التي جاء بها، فناسب استخدام لفظ الجلالة (اللّه) وهو أعرف المعارف، لعلهم يرجعون عن فعلتهم القبيحة. وقال Y في سياق ثان: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج١، ص٢١١.
(٢) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكبير، ج٣، ص٣٢١.
(٣) انظر: العكبري، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين(ت٦١٦هـ/ ١١٩٥م)، اللباب في علل البناء والإعراب، ط١، (تحقيق غازي طليمات)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص٤٨٣،٤٨٤.

الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦}). وناسب استخدام التعبير القرآني لفظ الجلالة (الله)، وهو الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى، الدال على الوحدانية؛ لتفصح عن المقابلة بين الحق الواحد وهو الله Y وبين ما اتخذه المشركون من آلهة باطلة متعددة (إِلـهاً آخَرَ).

ومن أسماء الله الحسنى: الحكيم والعليم، قال Y:(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}). والحكيم: "هو بالغ الحكمة، والحكمة عبارة عن العلم بالأشياء على ما هي، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، ولعل ذكر الحكمة للإيذان باقتضائها وجوب الحشر والجزاء"(١). والعليم: هو المتصف بالعلم العام، أي المحيط بكل صغيرة وكبيرة. فالعليم من سيحشر الخلق مستقدمهم ومستأخرهم محيطا بهم وبأعمالهم.

ومنها، الغفور والرحيم، قال Y: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩}). وفي ذكر هذين الاسمين تصدير لذكر القصص التي أريد من التذكير بها إعلام الناس بمغفرة الله Y وسعة رحمته، نحو: إنزال الله Y الملائكة في بيت إبراهيم ـ عليه السلام ـ تكريما له، ثم بشارته بإسحاق ـ عليه السلام ـ وأنه سيصير غلاما عليما، ثم إعلام الله Y إياه بما سيحل بقوم لوط كرامة لإبراهيم ـ عليهما السلام ـ، ثم نصر الله لوطا ـ عليه السلام ـ بالملائكة، وإنقاذه وآله إلا امرأته. وناسب ذكر هذين الاسمين أن تقدَّم الآيةَ قوله Y: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥}). وفي الآية نفسها (عِبَادِي)، وعباد الله Y قسمان: منهم المتقون، ومنهم من لا يكون كذلك. وفي ذكر اسمي الغفور، والرحيم "إشعار بما قيل بأن ليس المراد بالمتقين من يتقي جميع الذنوب؛ إذ لو أريد ذلك لم يكن لذكر المغفرة والرحمة موقع. وقيل: إن ذكر اسمي الغفور، والرحيم؛ لدفع توهم أن غير أولئك المتقين لا يكون في الجنة بأنه يدخلها وإن لم يتب لأنه Y الغفور الرحيم"(٢).

ومن أسماء الله Y، الْخَلاَّقُ والعليمُ، قال Y: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦}). وهذه الآية في موقع التعليل لقوله Y في الآية السابقة لها: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{٨٥}). فهي تعليل لأمر الله Y نبيه ε أن يصفح عن المشركين، "أي لأن في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم يعلمها ربك، فمصلحة النبيε في الصفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم، فالله الخلاق لكم ولهم، ولأنفسكم

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ج١٣، ص٥٩.

وأنفسهم، العليم بما يأتيه كل منكم. وفي اسمي (الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ) إيماء إلى بشارة النبي ε بأن الله يخلق من أولئك المشركين من يعلم أنهم يكونون أولياء للنبي ε، وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية، والذين وُلِدوُا فآمنوا. و لعل تلك هي نكتة ذكر اسم (الْخَلاَّقُ) دون غيره من الأسماء الحسنى"(١).

وتعدل سورة الحِجر عن الاسم العلم (الله) في بعض الآيات إلى (الرَّب)؛ لتحقيق أغراض أسلوبية ومقاصد دلالية يقتضيها السياق. وقد ذكر لفظ (الرَّب) دون الاسم العلم (الله) في سبعة مواطن. ستة منها أضيف إلى ضمير المخاطب المفرد المذكر، وهو يعود إلى النبي ε. ولعل الدلالة الإجمالية لهذه الإضافة هي الرّد على المشركين حين نعتوا رسول الله ε بالجنون - وحاشاه - في أول السورة (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}). فجاء التعبير القرآني بهذه الإضافة التي تلقي بظلالها على السورة لينسب محمدا ε إلى الله Y إعظاما لشأنه، ورفعا لذكره ومنزلته، وتسلية لقلبه الشريف ε. ثم تضمنت كل آية من الآيات الست دلالة خاصة، والآيات هي:

١. قال Y: (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}). ومن معاني (الرّب): المالك، فالله "رب كل شيء أي مالكه"(٢). وفي الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية تنبيه على أن الله Y مالك الخلق، فهو القادر على حشرهم وحسابهم، وفي الإضافة إلى ضميره ε دلالة على لطف الله Y بنبيه ε في يوم الحشر، ذلك اليوم العصيب.

٢. قال Y: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨}. "وأصل الرّب، التربية: وهي إنشاء شيء حالا فحالا إلى حد التمام"(٣). ولعل التعرض لوصف الربوبية إنباء عن وصول الإنسان إلى كماله التام اللائق به شيئا فشيئا، مصداقا لقولهY: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}(التين:٤). ثم إن في الإضافة إلى ضميره ε إشارة إلى أنه أتمُّ الناس خَلقَا وخُلُقًا، تشريفا له ε.

٣. قال Y: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦}). وهذه الآية في موقع التعليل لأمر الله Y نبيه ε أن يصفح عن المشركين، قال Y: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٧٨.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة(ربب)، ج٣، ص١٤.
(٣) الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مادة(ربب)، ج٣، ص٢٩.

السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{٨٥}). وقد تنبه الإمام ابن عاشور إلى دلالة العدول عن لفظ الجلالة (الله) بما يتناسب والأمر الإلهي، فقال: "والعدول إلى (رَبِّكَ) للإشارة إلى أن الذي هو ربه ومدبر أمره لا يأمره إلا بما فيه صلاحه، ولا يقدر إلا ما فيه خيره"(١).

٤. قال Y: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣}) ويكون هذا السؤال يوم القيامة، وفيه من التقريع والتوبيخ ما لا يخفى. ولعل في التعرض لوصف الربوبية مضافا إلى ضميره ε ما يشعر بلطف الله Y بنبيه ε يومئذ. " وفيه إيماء إلى أن في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به، وهو سؤال الله المكذبين عن تكذيبهم إياه سؤال رب يغضب لرسوله ε"(٢).

٥،٦. قال Y:(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{٩٩}) ولعل ظهور عنوان الربوبية مضافا إلى ضميره ε مرتين تسلية للنبي ε مما يسمعه من كلمات الشرك والطعن به وبالإسلام.

ثم ورد لقب (الرب) في الموطن السابع مرتين على لسان إبليس مخاطبا الله Y، قال Y: (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦})، وقال Y: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩}). والتعبير القرآني يستخدم اللقب في مخاطبة إبليس لله Y ليصور ذل إبليس وخضوعه أمام عزة الله Y ربِّ كل شيء ومليكه؛ إذ ليس ثمة مناظرة بين الله Y وإبليس، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

٢. أسماء القرآن الكريم.

ومما جاء منها في سورة (الحِجر) ثلاثة: القرآن والكتاب والذِّكر. تكرر اسم القرآن ثلاثا. قال Y:(الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}). وقال Y: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧}). وقال Y: (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١}) وتكرر اسم الذِّكر مرتين. قال Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦})،(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). والكتاب مرة واحدة. قال Y: (الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}). ولأن" مصطلح (الكتاب) يمثل جانب التشريع، ومصطلح (القرآن) يمثل

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٧٩.
(٢) المصدر نفسه، ج١٤، ص٨٧.

جانب الإعجاز والبيان، تماما كما بينته آيات القرآن الكريم"(١) كان تكرار القرآن دون الكتاب؛ فالسورة مكية، وهي تتحدى المشركين بمعجزة القرآن الخالدة، ولا تتضمن تشريعات وأحكاما.

وتكرر (الذِّكر) "وهو تسمية جامعة عجيبة لم يكن للعرب علم بها قبل أن ترد في القرآن"(٢). ولعل التعبير القرآني استخدم هذه الكلمة في السياق الأول على لسان المشركين ـ وهم لم يعرفوا هذا الاسم ـ للإشارة إلى غلو المشركين في جحودهم القرآن الكريم وإنكاره، بل واستهزائهم به؛ إذ وصفوا القرآن بما لم يعرفوا، بله كونهم يصفون رسول الله ε بالجنون وحاشاه. ثم أعاد التعبير القرآني الاسم نفسه في السياق الآخر وقد أسنده الله Y إليه؛ ليفصح عن مكانة هذا الكتاب العزيز وأنه من عند الله سبحانه، وأن الذي أُنزل عليه الذكر هو رسول من عند الله Y، وفي هذا تسلية لقلب رسوله ε، ولكن المشركين لا يفقهون.

٣. أسماء الأنبياء عليهم السلام.

والناظر في التعبير القرآني يجده لا يحفل كثيرا بأسماء البشر؛ لأن القرآن الكريم كتاب مبادئ لا أشخاص، وحتى لا يظن أن الموضوع مرتبط باسم هذا الشخص المذكور. والأنبياء الكرام ـ مع كثرتهم ـ لم يذكر منهم في القرآن الكريم إلا خمسة وعشرون، مثلوا نماذج متميزة في تاريخ الدعوة. وممن ذكر منهم في سورة (الحِجر) أبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ، قال Y: (وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْراَهِيمَ{٥١}). ولوط ـ عليه السلام ـ مرتين، قال Y: (قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠} فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{٦١}). وقد استغرقت السورة في الحديث عن قصتيهما من الآية (٥١) إلى الآية (٧٤)، أي(٢٣) أية من (٩٩). وبسبب التوسع في قصة لوط ـ عليه السلام ـ تكرر الاسم. ولما لم تتوسع السورة في قصص رسولي الله Y شعيب وصالح ـ عليهما السلام ـ اكتفت بذكر أقوامهم دون أسمائهم، قال Y: (وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ{٧٨} فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ{٧٩} وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجرِ الْمُرْسَلِينَ{٨٠} وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٨١} وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{٨٣} فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٤}).

(١) أبو عودة، البيان القرآني:مفهومه ووسائله، ص٥٧.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص١٧.

وبالرجوع إلى ما صُدرت به هذه القصص من آيات نجد قوله Y: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩} وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{٥٠}). فتمثلت مظاهر المغفرة والرحمة في قصتي إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ مما ناسب ذكر اسميهما إشارة إلى رحمة الله Y عباده الصالحين. بينا تجلت مظاهر عذاب الله Y في قصتي شعيب وصالح ـ عليهما السلام ـ نحو: انتقام الله Y من أصحاب الأيكة الظالمين، وأخذ أصحاب الحِجر المكذبين بالصيحة، فناسب عدم إيراد التعبير القرآني اسميهما تكريما لهما.

٢. اسم إبليس.

ورد اسم إبليس ـ لعنه الله ـ في سياق قوله Y: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦} وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{٢٧} وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩} فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠} إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣١} قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢} قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣}). والمقصود بالإنسان آدم ـ عليه السلام ـ كما أجمع المفسرون، وذكر بالمقابل الجان وهو أبو الجن، وهذا قول الأكثرين[(١)]. ولم يأت التعبير القرآني باسم آدم عليه السلام، وإنما أشار إليه بمادة خلقه، ونفخ الروح فيه، وبأمر الله Y ملائكته بالسجود له؛ ليعلم أن هذا المخلوق البشري ممتاز عند الله Y بخصائصه لا بمادة تركيبه . ثم خصصت الآيات الكريمة اسم إبليس (إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣١}) بعد عموم قوله Y: (وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{٢٧}). ليعلم أن " الشياطين قسم من الجن، فكل من كان منهم مؤمنا فإنه لا يسمى بالشيطان، وكل من كان منهم كافرا يسمى بهذا الاسم"[(٢)]. فإبليس شيطان. وذِكرُ اسم العلم، ولاسيما أنه تكرر في الآية التالية (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢}) هو للذم، بل كل الحوار الذي وقع بين الله Y وإبليس لعنه الله Y هو تصوير لذم هذا الشيطان الرجيم واحتقاره. وسنبين هذا في مبحث التصوير بالحوار من الفصل الرابع في الرسالة.

---

(1) الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج١٩، ص١٧٩.

ثانيا: اللقب.

ومن اللقب، كلمة (امرأة) في قوله Y: (قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠}). وفي عدول التعبير القرآني عن اسمها تحقير لها، وتبكيت لكل من يبتعد عن سبيل الهداية.

ج. اسم الإشارة.

ورد عدد من أسماء الإشارة في السورة لدواعي وأهداف بيانية، يمكننا تلمسها، واستنتاجها من السياق. ومن هذه الأغراض البيانية توسعة المعنى وتمييزه، والتنبيه على ما تقدم ذكره؛ لبيان منزلته وأهميته في السياق. وفيما يأتي تفصيل ذلك.

١. توسيع المعنى.

قال Y: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢}) اتسعت دلالة اسم الإشارة (هذا) في سياقه هذا، مما أدى إلى اتساع المعنى، فحمل أوجها أربعة: الأول، أن تكون الإشارة إلى الاستثناء الذي سبق في حكاية كلام إبليس (إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠}) " فلفظ المُخلَص يدل على الإخلاص، فقوله (هذا) عائد إلى الإخلاص، والمعنى: أن الإخلاص طريق علي وإلي، أي أنه يؤدي إلى كرامتي وثوابي. والثاني: أن الإخلاص طريق العبودية، أي هذا الطريق في العبودية طريق علي مستقيم. والثالث: أن تفويض الأمور إلى مشيئتي وإرادتي طريق علي مستقيم، واستفيد هذا المعنى من ذكر إبليس غوايته بني آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه، فتضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله Y"(١). والرابع: " أن تكون الإشارة إلى ما يؤخذ من الجملة الواقعة بعد اسم الإشارة المبنية للإخبار عن اسم الإشارة، وهي (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ). فيكون اسم الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن قصدا للتشويق إلى سماعه عند ذكره"(٢).

ومن الأمثلة اسم الإشارة (ذلك) في قوله Y: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ{٦٦}). فقد أفاد "الإبهام التهويل، والتعظيم. وجملة (..أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ) جملة مفسرة لـ (ذَلِكَ الأَمْرَ) وهي المناسبة للفعل المضمن وهو (أوحينا). فصار التقدير: وقضينا الأمر

---

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٨٩.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٥١.

وأوحينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع. فنظم هذا الكلام البديع الوافر المعنى بما في قوله (ذَلِكَ الأَمْرَ) من الإبهام والتعظيم"[(١)].

٢. تمييزه.

قال Y: (الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}). فهذه الإشارة إلى المقدار المعروف من آيات القرآن. أي تلك الآيات التي تعرفونها وتميزونها تمييز الشيء الذي تمكن الإشارة إليه، فهذه الإشارة لتنزيل آيات القرآن غير المحسوسة منزلة المشاهد المحسوس، وفي هذا مدح لآيات القرآن وتعظيم لها.

وقال Y:(قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢}). ومما يعود عليه اسم الإشارة (هذا) الجملة الواقعة بعده، وهي (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢})؛ لإنزال غير المشاهد (المخلَصين) منزلة المشاهد تعظيما لهم؛ إذ ميزهم. ومما زاد من تمييز هؤلاء (المخلَصين) أن ذكروا متأخرين عن اسم الإشارة لقصد التشويق إلى معرفتهم.

٣. التنبيه على ما سبق.

وظف التعبير القرآني اسم الإشارة (ذلك) الذي تكرر مرتين وقد أشار إلى الموضوع نفسه، تنبيها على أن ما سبق ذكره جدير أن يعاد النظر فيه؛ لتستنتج الفوائد والحِكم. قال Y: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥} وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقيمٍ{٧٦} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ{٧٧}). وهما يشيران إلى قصة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه. ولا غرو في الإشارة إليها مرتين؛ إذ إنها شكلت ستا وثلاثين آية من السورة ابتداء من قوله Y: (وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ{٥١}). وأشار الاسم الأول إلى ما تقدم من قصة لوط، وضيف إبراهيم، وتعرض قوم لوط لهم طمعا فيهم، وقلب القرية على من فيها، وإمطار الحجارة عليها، ولذا ورد مع الجمع (لآيَاتٍ)، بينا ورد الاسم الثاني مع المفرد (لآيَةً)؛ لأنه أشار إلى كون قرية لوط بسبيل مقيم فهو في جملته آية واحدة[(٢)].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٦٥.

(٢) انظر: الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٦م)، درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣، ص٢٥٢،٢٥٣.

د. الاسم الموصول.

للاسم الموصول مقاصد أسلوبية متعددة؛ إذ يرد في سياقات مختلفة بدلالات متباينة. ومن الأغراض التي أتى بها التعبير القرآني بالاسم الموصول:

١. الإيماء والإشارة إلى الخبر.

قال Y: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢}). لعله من غير العسير على الناظر إلى الصلة في الآية وهي قوله Y: (كَفَرُواْ) أن يدرك منها فحوى الخبر الذي لم يأت بعد. وهو أقصى أمنيات الكافر، أي الإسلام، ولذا جاء الخبر دالا على هذا. (لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ). وهذا غرض مهم من أغراض التعريف بالموصول، يفهم منه الذم والمدح: ذم الكافرين، ومدح المسلمين.

ومنه قوله Y: (قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣}). وهذا إعلام الملائكة لوطا ـ عليه السلام ـ بالعذاب الذي سينزل على قومه، فجاءت الصلة تومئ إلى الخبر، أي بالأمر الذي كان قومك في شك من نزوله بهم، وهو العذاب.

٢. التهكم والسخرية.

قال Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}). وهذه جملة سيقت الصلة فيها عدولا عن الاسم العلم محمد ρ؛ لأن الصلة تتضمن السبب الذي جعل المشركين يتهكمون، وهو قول النبيρ: إن القرآن العظيم منزَّل عليه من عند الله Y . وليس في الصلة إقرار من المشركين بنزول الذكر عليه ρ، فهم ينسبونه إلى الجنون، "وإنما هذا من التعكيس للاستهزاء والتهكم، وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها: (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ){آل عمران:٢١}. (إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ){هود:٨٧}. والمعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله نزل عليك الذِّكر"[١]. ويستفاد من التعريف بالصلة صرف الله Y ألسنة المشركين عن شتمه ρ، فهم أرادوا الاستهزاء بوصفه فأنطقهم الله Y بالحق فيه. وهذا كما كانوا إذا شتموا النبي ρ أو هجوه يدعونه مذمَّمَا. فيقول النبي ρ : " ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمَّما ويلعنون مذمما وأنا محمد"[٢].

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٣٥.

(٢) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ ـ ٨٦٨م)، صحيح البخاري، ط١، (ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي)، دار الهيثم، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٤١٨، رقم الحديث: ٣٥٣٣.

٣. تأكيد الغرض الذي سيق الكلام من أجله.

وذلك في قوله Y: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦}) فالغرض الذي سيق الكلام من أجله هو ولاية الله Y نبيه ε، وإراحتهε من استهزاء المشركين، بله ما هو أشد من الاستهزاء. وقد جاء الموصول ليؤدي هذا الغرض على أحسن وجه وأتمه، وبيان ذلك: أن التعبير القرآني لم يذكر أسماء أولئك المستهزئين(١) ذما وتحقيرا لهم، بل ذكرهم بالصلة التي يفهم منها شركهم(الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ) ليجتمع فيهم: استهزاؤهم برسولهρ، وإشراكهم بالله Y؛ فيصيروا محلا لغضبه Y ونقمته، وفي هذا إشارة إلى قرب هلاكهم، وإراحة رسول الله ρ منهم. وتسلية لرسول الله ρ أنهم ما اقتصروا في الافتراء عليك يا محمد ρ وحدك، بل هم كذلك على الله Y يفترون.

ومن ذلك، قوله Y: (وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{٨٣} فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٤}). وهم قوم صالح ـ عليه السلام ـ بنوا بيوتهم في صخر الجبال، فصارت حصونا لا ينالهم فيها عدو. وظنوا أنها تمنعهم من عذاب الله Y. فقرر موقع الموصول والصلة ـ (مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) بدلا من (بيوتهم) مثلا ـ على أن الله Y مهلكهم، وإن كانوا في أشد المواطن أمنا في ظنهم، فالذي لم يغن عنهم شيء هو ما اتخذوه ـ أي كسبوه ـ ليدفع عنهم العذاب.

هـ. المعرَّف بـ (ال).

عمدت سورة (الحِجر) إلى استخدام الاسم المعرف بـ (ال) استخداما فنيا وخاصا في سورة (الحِجر) مما كشف عن ملمح أسلوبي. وقد جاء على أحسن صورة وأتم وجه. فمن خصائص (ال) التعريف أنها "تكون للجنس، ومن أجلِّ مواقعها فيه أن تستخدم لاستغراق خصائص الجنس"(٢).

ومن أظهر مواضع الاستغراق في السورة، تعريف (اللعنة) بـ (ال) الجنس في قوله Y مخاطبا إبليس: (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ **اللَّعْنَةَ** إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥}). بينا عدل التعبير القرآني عن التعريف بها إلى التعريف بالإضافة في سورة (ص)، فقال Y: (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٧٧} وَإِنَّ عَلَيْكَ **لَعْنَتِي** إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٧٨}). وذلك " لأن الكلام في

(١) انظر أسماءهم: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص٤٧.
(٢) انظر: بدوي، من بلاغة القرآن، ص١٣٧.

سورة (الحِجر) جرى على (ال) الجنس في القصة، فورد من الأسماء المعرّفة بها: الإنسان، (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ). والجان، (وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ)، والملائكة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ)"(1). وفي هذا ما يدلل على وحدة السورة وتماسكها لفظا ومعنى.

و. التعريف بالإضافة.

تنوعت المقاصد الدلالية للتعريف بالإضافة في سورة (الحِجر)، ونذكر منها:

١. ترك التفصيل.

قال Y: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١}). تأتي الإضافة للاختصار والإيجاز، لكنها هنا حققت مع الاختصار غرضا آخر، وهو ترك التفصيل. فـ(شِيَعِ الأَوَّلِينَ) تعني:" شيع الأمم الأولين، والأولون هم الأقدمون"(2). فالآية تذكر خبر القرون الأولى من الأمم التي أُرسل إليهم، فكذبوا وسخروا، تسلية للرسول ρ. والإضافة هنا أغنت عن التفصيل في ذكر أولئك الرسل وشيعهم، وهم كُثر كُثر. قال Y: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا){النساء:١٦٤}. وعلى نحو ما سبق يفهم الغرض من الإضافة (سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) في قوله Y: (لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣}). و(عِبَادِي) في قوله Y: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢})، و(أَهْلُ الْمَدِينَةِ) في قوله Y: (وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ{٦٧}).

٢. التشريف والتفخيم.

خرجت الإضافة من معنى التعريف إلى معنى التشريف في قوله Y: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨}فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩}). فالإضافة في (رُوحِي) "على سبيل تشريف آدم ـ عليه السلام ـ، نحو: بيت الله، وناقة الله؛ إذ هو المتصرف في الإنشاء للروح، والمودعها حيث يشاء"(3). وللعلامة ابن عاشور استنباط لطيف يقول فيه: " وإسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق. وفيه إيماء إلى أن حقائق العناصر عند الله Y لا تتفاضل إلا بتفاضل آثارها وأعمالها، وأن كراهة الذات أو الرائحة إلى حالة يكرهها بعض الناس أو كلهم إنما هو تابع لما يلائم

---

(١) انظر: الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، ج١، ص٢٧٥.
(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ج٦، ص٤٦٨.
(٣) أبو حيان، البحر المحيط، ج٦، ص٤٧٧.

الإدراك الحسي أو ينافره تبعا لطباع الأمزجة أو لإلف العادة، ولا يؤبه في علم الله Y. وهذا هو ضابط وصف القذارة والنزاهة عند البشر"[١].

ومن التشريف قوله: (عِبَادِي)، قال Y: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩}). وكونه أضاف العباد إليه فهو تشريف لهم. ومنه، ما قاله Y على لسان لوط ـ عليه السلام ـ: (قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ{٦٨}) فنسب لوط ـ عليه السلام ـ ضيوفه إليه تشريفا وتكريما لهم أمام قومه الخبث.

ويشار هنا إلى ما ذكرتُه عن إضافة لقب (الرّب) إلى ضميره ρ في مبحث دلالة اللقب[٢].

٣. حفظ الله Y عباده من إبليس.

تكرر لفظ (عباد) الذي أضيف إلى ضمير اسم الجلالة في سياق واحد مرتين، فدل على أنَّ من عباد الله Y من تلبسوا بصفة العبودية الحقة لله Y، فحَفِظهم من مكائد الشيطان. قال Y: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢}).

٣. المشتقات.

أ. اسم الفاعل.

وهو اسم يشتق من الفعل، ويدل على وصف من قام بالفعل. وقد ورد في السورة اثنتين وأربعين مرة، وهو يشكِّل فواصل الآيات، عدا ثلاث مرات. على النحو الآتي:

مُّبِينٍ{١}، مُسْلِمِينَ{٢}، الصَّادِقِينَ{٧}، لَحَافِظُونَ{٩}، الْمُجْرِمِينَ{١٢}، لِلنَّاظِرِينَ{١٦}، مُّبِينٌ{١٨}، بِرَازِقِينَ{٢٠}، بِخَازِنِينَ{٢٢}، الْوَارِثُونَ{٢٣}، وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤}، وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨}، سَاجِدِينَ{٢٩}، السَّاجِدِينَ{٣١}، السَّاجِدِينَ{٣٢}، مُسْتَقِيمٌ{٤١}، الْغَاوِينَ{٤٢}، إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥}، آمِنِينَ{٤٦}، مُّتَقَابِلِينَ{٤٧}، الْقَانِطِينَ{٥٥}، الضَّآلُّونَ{٥٦}، مُّجْرِمِينَ{٥٨}، الْغَابِرِينَ{٦٠}، لَصَادِقُونَ{٦٤}، مُّصْبِحِينَ{٦٦}، فَاعِلِينَ{٧١}، مُشْرِقِينَ{٧٣}، لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥}، لِّلْمُؤمِنِينَ{٧٧}، لَظَالِمِينَ{٧٨}، مُّبِينٍ{٧٩}، مُعْرِضِينَ{٨١}، آمِنِينَ{٨٢}،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٤٤.

(٢) انظر: ص٨٥ من هذه الرسالة.

مُصْـــبِحِينَ{٨٣}، لِلْمُـــؤْمِنِينَ{٨٨}، الْمُبِـــينُ{٨٩}، المُقْتَسِـــمِينَ{٩٠}، الْمُشْـــرِكِينَ{٩٤}، الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} ،السَّاجِدِينَ{٩٨}.

ولاسم الفاعل على هذا النحو وظيفته الصوتية؛ فهو يضفي على فواصل الآيات بِنية إيقاعية مميزة لها، تجعل المتلقي يرقب اسم الفاعل في فواصل الآية، فإذا ما تحولت الفاصلة عن اسم الفاعل انتبه السامع وتيقظ. ويُلاحظ أن اسم الفاعل لازم صوت النون أو الميم مفردا وجمعا وفي كلتيهما غُنَّة تضفي التساوق على أصوات الفواصل في السورة.

وصرفيا تراوح صيغة اسم الفاعل وظيفيا بين الاسمية والفعلية، والثبوت واللزوم، والتجدد والتحول، والتقليل والتكثير(١)، فهي محتملة لكل واحد مما سبق. ومما يسترعي الانتباه أن نجد اسم الفاعل في سورة (الحِجر) غير عامل سوى مرة واحدة في قوله Y: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨}). فـ(بَشَرا) منصوبة باسم الفاعل (خَالِقٌ). واسم الفاعل إذا عمل اقترب في دلالته من الفعل، وصار ارتباطه بالمستقبل بله الحال، فيدل على التغير والتجدد، " ذلك أن اسم الفاعل يدل على الاستقبال فقط عندما يكون عاملا"(٢). وصفة الخالقية لله Y إنما هي صفة أزلية باقية، لا تتجدد ولا تتحول، والله Y مازال خالقا، لكن مظاهر تجليات هذه الصفة هي التي تتجدد للناظر في العالم، حيث الخَلقُ الدائمُ المتجددُ من البشر وغيرهم، فيرشده هذا إلى كمال قدرة الله Y ووحدانيته.

ومن أمثلة اسم الفاعل (غير العامل) الذي اقتربت دلالته من الثبات واللزوم ما رشح من تراسل دلالي بين كلمتي (مُّبِينٍ) و(حافظون). قال Y:(الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١})، وقال Y:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}).

فـ(مبين) "اسم فاعل من الفعل (أبان) القاصر بمعنى (بان) مبالغة في ظهوره، أي ظهور قرآنيته العظيمة، أي ظهور إعجازه الذي تحققه المعاندون وغيرهم"(٣). فالقرآن ظاهر في إعجازه ظهورا ملازما له، لا يعمى عنه عاقل. وفي هذا توبيخ لمنكريه.

و(حافظون) اسم فاعل من الفعل (حفظ)، وهو يدل على ثبوت حفظ الله Y القرآن الكريم من أن يزاد فيه أو ينقص منه. ولعل دلالة اسمي الفاعل (مبين) و(حافظ) في تعلقهما بالقرآن الكريم

---

(١) انظر: حسن، عباس، النحو الوافي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ج٣، ص٢٣٩.
(٢) استيتيه، سمير شريف، منازل الرؤيا منهج تكاملي في قراءة النص ، ط١، دار وائل، عمان، ٢٠٠٠، ص٩٦.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص١٠.

هي أن القرآن مع بيانه الظاهر والواضح في ألفاظه ومعانيه إلا أن أفصح المعاندين وأبلغهم ـ وهم يتلمسون إعجاز القرآن ـ لا يجد سبيلا في أن يزيد فيه حرفا أو ينقص آخر؛ إذ الله Y حافظه. ليظل آية دالة على وحدانيتهY وقدرته.

ومن أمثلة دلالة اسم الفاعل على التقليل، كلمة (مُسْلِمِينَ) في قوله Y: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢}). وصيغة اسم الفاعل (مُسْلِمِينَ) لا تدل وحدها على معنى التقليل إلا أنها وردت في سياق أفاد هذا المعنى المحتمل. فقد سبقت بـ (رُبَّ) المستعملة في التقليل ـ وسيأتي بحث (رُبَّ) في المستوى النحوي من الدراسة ـ، فأفادت الآية معنيين للتقليل: الأول، يستفاد من (رُبَّ)، وهو "ودادة المشركين الإسلام ولو مرة واحدة"(١)، أما الثاني، فيستفاد من اختيار اسم الفاعل (مُسْلِمِينَ) دون صيغة المبالغة (مسلِّمين) التي يفهم منها كثرة الطاعات؛ إذ إن المشركين يوم الحساب يودون ما يتحقق لهم به أقل مراتب العبودية وهو الإسلام الذي يحقق لصاحبه الخروج من النار وإن لم يكن معه طاعات كثيرة.

وقد يدل اسم الفاعل على التكثير، نحو كلمة (المُتَوَسِّمِينَ) في قوله Y: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥}). وهذه الجملة تذييل لما جاء في قصتي إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ من دلائل على وحدانية الله Y. والمتوسمون: هم " المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء، وصفته وعلامته، وهو استقصاء وجوه التعرف"(٢). ويلمح معنى التكثير لاسم الفاعل (المُتَوَسِّمِينَ) ـ بله المعنى ـ من لفظة (آيات) وهي جمع، مما يستدعي نظرا وتدبرا أكثر.

ب. اسم المفعول.

وهو: اسم مشتق من الفعل المتعدي، يدل على معنى مجرد، دائم أو غير دائم، وعلى الذي وقع عليه الفعل. "ودلالته مقصورة على الحدوث ـ أي على الحال ـ فهي لا تمتد إلى الماضي، ولا إلى المستقبل، ولا تفيد الدوام إلا بقرينة"(٣). وقد توزع اسم المفعول في السورة على خمسة عشر موطنا دلت القرائن فيها على دوامه خلا موطنا واحدا، مما شكل ملمحا أسلوبيا.

فمن أسماء المفعول التي دلت على الدوام ـ ماضيا ومستقبلا ـ في السورة: اسم المفعول (معلوم) وقد اقترن بعلم الله Y الأزلي والأبدي. وورد في ثلاثة مواطن، وهي:

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٣٤.
(٢) انظر: ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص٤٨١.
(٣) حسن، النحو الوافي، ج٣، ص٢٧١.

الأول: قوله Y:(وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}) ودل اسم الفاعل على النهاية في الزجر والتحذير؛ إذ إن إهلاك المشركين وعذابهم " إنما يقع فيه التقديم والتأخير، فالذين تقدموا(الماضي) كان وقت هلاكهم في الكتاب معجلا، والذين تأخروا (المستقبل) كان وقت هلاكهم في الكتاب مؤخرا"(١). والثاني: قوله Y: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١}). والمقصود بـ (مَّعْلُومٍ) أنه معلوم تقديره عند الله Yالأول والآخر. والثالث: قوله Y: (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٣٧} إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٣٨}). وهذه جملة دل اسم المفعول فيها على تفرد الله Y في علم الساعة أزلا وأبدا.

ومنها، اسم المفعول (مجنون) الذي صور به التعبير القرآني استهزاء المشركين بالنبي ε، في قوله Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}). والمشركون يريدون من وصف (الجنون) دوام لصوقه بالنبي ε لا أن يكون حاليا حسب.

ومنها، اسم المفعول (مَّسْنُونٍ) الذي تكرار ثلاث مرات، قال Y:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦}). وقال Y: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨}). وقال Y: (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣}). ودل على دوام اسم المفعول قرينة (الخلق)، فالصلصال المسنون هو مادة خلق الإنسان التي أرادها الله Y له.

ومنها، اسم المفعول (الْمُخْلَصِينَ) في قوله Y: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠}). والمخلَصون هم "الذين استخلصهم الله Y من العباد، فلا تسلُّط لإبليس عليهم بإيقاعهم في ذنْب يهلكون به ولا يتوبون منه"(٢). وهذه بشارة للمؤمنين التائبين في كل زمان، فلا يقنطون من رحمة الله Y أبدا.

ومنها، اسم المفعول (مُخْرَجِينَ) في قوله Y في حق أهل الجنة: (لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ{٤٨}). فأهل الجنة خالدون فيها، دائمون في نعيمها أبدا دون انقطاع.

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٥٦.
(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج٣، ص١٣١.

أما ما جاء من اسم المفعول دالا على الحال ـ كما هو الأصل ـ، فـ(منكرون) في قوله Y:(قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٦٢}). وهذه جملة على لسان لوط ـ عليه السلام ـ مخاطبا الملائكة ـ عليهم السلام ـ قبل أن يعرفهم، ثم زال الإنكار لما أخبروه بحالهم، وسبب مجيئهم.

ثانيا: بنية الأفعال.

تندرج دراستنا لأفعال سورة (الحِجر) ضمن دائرتين: الأولى، تتضمن الصيغ الصرفية البسيطة (المفردة)، وندرسها من حيث الزمن والصيغة على اختلاف أشكالها وتباين دلالاتها. والثانية، تتضمن الصيغ الصرفية المركبة التي تجمع بين فعلين أو حرف وفعل.

١. الصيغ الصرفية البسيطة(المفردة).

استخدمت في سورة (الحِجر) الأفعال بمختلف أزمنتها وصيغها، فقد بلغ عدد أفعالها (١٣٩) فعلا، منها (٧٥) فعلا ماضيا، و(٤٧) فعلا مضارعا، و(١٧) فعل أمر. وتؤكد هذه النسب غلبة الفعل الماضي؛ لأنه أصل الأفعال، وأكثرها استعمالا وأيسرها تصرفا. كما أن سورة (الحِجر) قصدت إلى معاني التوحيد والنبوة والبعث، الأمر الذي يعتمد تأكيده على الإخبار والتقرير والثبوت؛ ولهذا كثرت الأفعال الماضية المفيدة لدلالة تحقق الفعل وثبوته. ثم الفعل المضارع وهو يدل في الغالب الأعم على التجدد والاستمرار. ثم فعل الأمر وهو أقلها ورودا؛ إذ السورة مكية، ومن الخصائص الموضوعية والأسلوبية للسور المكية أنها تعنى بأمور العقيدة وترسيخها في النفوس، ولا تعتمد على فعل الأمر كالسور المدنية التي فيها التحليل والتحريم والتشريع، مما يناسبها الأمر.

ومما جاء من صيغ صرفية في السورة:

أ. فَعَلَ.

ورد بناء فَعَلَ في السورة (٤٩) مرة. وهو " أكثر الأفعال عددا، لأنه الفعل الذي يدل غالبا على العمل والحركة والفعل إطلاقا. لذلك فهو أكثر تصرفا؛ إذ تقابله ثلاث صيغ في المضارع"[(١)]. وقد جاءت صيغة (فَعَلَ) في السورة متعدية في الغالب الأعم، ويدل على تعديها فتح عينها؛ إذ "فتح العين يدل عادة على تعدية الفعل، وعلى القيام بعمل خارجي فيه انفتاح على الخارج مناسب لانفتاح حركة العين"[(٢)]. والجدول الآتي يوضح تواتر صيغة (فَعَلَ) في السورة.

---

(١) البكوش، الطيب، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ط٢، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨٧، ص٨٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٨٠.

الصيغة	المثال	التواتر
فَعَلَ	كَفَرَ	١
	فَتَحَ◌◌	١
	خَلَ◌َو	١
	قَوَلَ	٢٣
	جَعَلَ	٤
	مَدَدَ	١
	خَلَقَ	٤
	نَفَخَ	١
	نَزَعَ	١
	دَخَلَ	١
	جَيَءَ	٣
	أَتَيَ	١
	قَضَيَ	١
	أَخَذَ	٢
	كَفَيَ	١
	سَجَدَ	١
	أَبَيَ	١
	مسّ	١

يبين الجدول السابق ارتباط صيغة (فَعَلَ) بالأفعال الدالة على الأعمال المرئية المشاهدة، وقد أشار القدماء إلى أن صيغة (فَعَلَ) ترتبط أساسا بالأفعال المشاهدة، يقول ابن يعيش في معرض حديثه عن معاني بناء (فَعَلَ): " فَعَلَ مفتوح العين يقع على معان كثيرة لا تكاد تنحصر توسعا فيه؛ لخفة البناء واللفظ. واللفظ إذا خف كثُر استعماله، واتسع التصرف فيه، فهو يقع على ما

كان عملا مرئيا. والمراد بالمرئي ما كان متعديا فيه علاج من الذي يوقِعه بالذي يوقَع به، فيُشاهَد ويُرَى."[1].

ب. فَعِلَ.

ورد هذا البناء بمثالين: الأول، (حَفِظَ). قال Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦} وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧}) والثاني، (عَلِمَ) مرتين. قال Y: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤}). وهما متعديان ـ لا لازمان نحو: فَرِحَ، وحَزِنَ، ويَئِسَ ـ؛ إذ وردا في معرض دلائل وحدانية الله Y، فأظهر مفعول (حَفِظَ) قدرة الله Y حفظ سماواته أن تستقرها الشياطين أو تتمكن فيها. ونبّه مفعول (عَلِمَ) على أنه لا يخفى على الله شيء من أحوال الناس، فهو المحيط علمه.

ج. أفعَلَ.

وبرز في السورة عشر مرات، اشتمل موضع واحد منها على خمسة أفعال، فشكلت ظهورا أسلوبيا. وقد دلت على معنى التعدية والجعل، قال Y: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١} وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢}) ويلاحظ اعتماد الآية على تلاحق صيغة (أفعل) في الآيات: (أَلْقَيْنَا، أَنبَتْنَا، أَرْسَلْنَا، أَنزَلْنَا، أَسْقَيْنَاكُمُوهُ). ولعل دلالة التكثيف من هذه الصيغة في سياق الحديث عن دلائل توحيد الله Y وملاحظة " التعبير القرآني في أنه يرد كل حركة إلى الله Y"[2]؛ ليعلم المشركون أن الله Y هو الذي جعل لهم كل هذه النعم، ومنّ بها عليهم، لينتفعوا منها، ولتدلهم عليه سبحانه، فتقوم الحجة.

ومما جاء من هذه الصيغة، قوله Y:

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}).

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠}).

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩}).

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٤}).

---

(١) ابن يعيش، شرح المفصل، ج٧، ص١٥٦،١٥٧.
(٢) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٣٥.

د. فعّل.

وردت صيغة (فعّل) في ستة سياقات من السورة. وهي: الفعل (نزَّل) في قوله Y:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). وإنما ذكر التعبير القرآني (نزَّل) ولم يقل (أَنزَلَ) لأن " الفرق بين (أنزَلَ) و (نزَّل) في وصف القرآن أن (نزَّل) تختص بالموضع الذي يشير إلى إنزاله مفرقا منجما، ومرة بعد أخرى. والإنزال عام"[١]. وعليه، دلت الآية على أن القرآن محفوظ منذ نزول الآية الأولى منه، وما زال محفوظا حتى تمَّ واكتمل، فما اعتراه زيادة ولا نقص، ولا تحريف ولا تبديل.

ومن صيغة (فعّل)، الفعل (سوّي) في قوله Y: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩}). "والتسوية عبارة عن الإتقان"[٢]. وفي صيغة (فعّل) بما تحمله من مبالغة تنبيه إلى كمال خلقة آدم ـ عليه السلام ـ واعتدال طبائعه. ومن المبالغة، الفعل (بشَّر) في قوله Y: (قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ{٥٥}). والبشارة هنا اشتملت عدة بشائر، إذ سيرزق إبراهيم ـ عليه السلام ـ بغلام، وسيكبر، ثم يكون نبيا. ومنها، الفعل (كذّب) في قوله Y: (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجرِ الْمُرْسَلِينَ{٨٠}). وأصحاب الحِجر هم ثمود الذين كفروا بما جاءهم به نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ، وبالغوا في تكذيبه وإنكار نبوته. ولعل في توظيف التعبير القرآني للجمع (المرسلين)، وثمود ما كذبوا إلا صالحا ـ عليه السلام ـ ما يفصح عن مبالغتهم في التكذيب، فهم لا يؤمنون وإن جاءتهم الرسل كلهم ـ عليهم السلام ـ.

ومنها، الفعل (متّع) في قوله Y: (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨}). وهذه حال المشركين مبالغة في الانغماس في الملذات والمتع، ثم مصيرهم النار. ومن معاني (فعّل) في السورة التعدية في قوله Y: (إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠}).

---

(١) انظر: الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز، مادة (نزل)، ج٥، ص٤٠.
(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ج٦، ص٤٧٦.

ه. افتَعَلَ.

ومن السمات الأسلوبية لسورة (الحِجر) أنها تميل إلى تكرار بعض القوالب الصرفية مرارا نسجا لدلالات مختلفة. ولكنها تلجأ أحيانا إلى اعتماد صيغة واحدة دون تكرارها، وإذا كان التكرار لبعض المكونات اللغوية ملمحا أسلوبيا؛ فإن في الاقتصار على ذكر الصيغة الصرفية مرة واحدة ما يدل على أن هذه الصيغة تحمل طاقة دلالية كثيفة، نحو الفعل (اسْتَرَقَ) في قوله Y: (وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨}). فقد عمد التعبير القرآني إلى هذه الصيغة الدالة على تكلُّف فعل السرقة من السماء رغبة في التأكيد على عصمة مصدر الوحي من الشياطين؛ فلا تعتريه الزيادة أو النقص. ثم إن الشياطين، وإن اطلعوا على شيء ما، فإن الله Y يمنعهم الاطلاع على أمر لو ألقوه في علم أوليائهم لكان ذلك فسادا في الأرض؛ فـ"الاستراق افتعال من السرقة، وهي أخذ شيء بخفية، وهو أن يخطف الكلام خطفة يسيرة"[١].

و. المبني للمجهول.(المغايرة في الصيغ).

عادة ما يدرس البناء للمجهول ضمن المباحث النحوية، إلا أنه إلى الدراسة الصرفية أقرب، يقول الدكتور كمال بشر: "ومن صميم البحوث الصرفية كذلك دراسة المغايرة في الصيغ، كما في المغايرة بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول."[٢]. فالبناء للمجهول "من المسائل التي يلتحم فيها المستويان: الصرفي والنحوي؛ إذ التغيير في البنية الصرفية يستتبع أحكاما نحوية"([٣]).

والمتأمل في سورة (الحِجر) يستطيع أن يتبين عدة أغراض بيانية يلجأ القرآن الكريم إلى التعبير عنها بحذف الفاعل الذي يقوم المفعول به مقامه، ويأخذ أحكامه. ويمكننا أن نتبين جانبا من هذه الأغراض في خمسة مواطن وردت صيغة المبني للمجهول فيها، وهي:

١. قال Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}). فهذه جملة سيقت على لسان المشركين وهم ينكرون الوحي والرسالة، ويتهكمون على النبي ε. وقد حذف الفاعل مع أن الغرض متعلق به، إذ إن الله Y هو منزل القرآن الكريم، لكن الحذف أبلغ؛ لأنه يُظهر إنكار المشركين أن يكون القرآن الكريم نزل على النبي ε، وإن آمنوا بنزول القرآن من عند الله Y، وذلك نحو قوله Y حاكيا حالهم هذه: (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ج٦، ص٤٧٢.
(٢) بشر، كمال، مفهوم علم الصرف، ص١١٢.
(٣) انظر: خليل، إبراهيم، في اللسانيات ونحو النص، ص٦٩،٧٠.

عَظِيمٍ)(الزخرف:٣١). أو قد يقصد التعبير القرآني من حذف الفاعل الدلالة على جحود المشركين وجود الله Y؛ فـ"إيراد الفعل على صيغة المجهول؛ لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل"(١).

٢. قال Y: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{١٥}). وفي هذه الآية حذف الفاعل (سُكِّرَتْ) ليفصح عن وصف المشركين بالعناد، واتفاقهم على الكذب والفساد، إذ لو فتح الله Y لهم بابا من السماء، وصعدوا إليها ورأوا بأعينهم ما فيها من الملائكة والعجائب طول نهارهم لعادوا منكرين لما رأوا، وهم يزعمون أن أحدا سكَّر أبصارهم، بل وسحر عقولهم مما يفيده الاسم المفعول (مَسْحُورُونَ).

٣. قال Y: (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦}). وهذه جملة على لسان إبليس ـ لعنه الله ـ يلاحظ فيها بناء الفعل للمجهول (يُبْعَثُونَ)؛ وقد تعلَّق الغرض بغير الفاعل ـ وهو الله Y ـ، وإنما الغرض من الفعل (يُبْعَثُونَ) ثلاثة أمور: الأول: إظهار خبث إبليس ـ لعنه الله ـ إذ "عقد العزم على إغواء البشر، فأراد الإنظار إلى آخر مدة وجود نوع الإنسان في الدنيا"(٢).والثاني: ذكر البعث حتى لا يموت؛ "لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده"(٣). والثالث: "إرادته الانتقام من آدم ـ عليه السلام ـ وذريته، جزاء ما لعنه الله وطرده، يربط لعنة الله Y له بآدم ـ عليه السلام ـ ولا يربطها بعصيانه لله Y في تبجح نكير"(٤).

٤. قال Y:(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ{٥٧} قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨}). وعدول الآية إلى الفعل المبني للمجهول لعدم تعلق الغرض بالفاعل. فقد عرف إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن ضيوفه رسل من عند الله Y حين بشروه بالغلام العليم، لكنه لما يعرف بما أرسلوا، فتعلق الفعل بما جاء به المرسلون، وهو هلاك قوم لوط ـ عليه السلام ـوعذابهم إلا من آمن.

٥. قال Y:(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ{٦٥}). وبناء الفعل للمجهول (تُؤْمَرُونَ) يفصح عن تسليم لوط ـ عليه السلام ـ وانقياده لأمر ربه Y، فهو ينتظر أمر الله Y لينفذه علما منه أن الآمر الله Y لن يضيعه، وهذا كمال ثقة بالله Y.

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٣، ص٢٩٣.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٤٨.
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص٢١.
(٤) انظر، قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٤١.

٢. الصيغ الصرفية المركبة.

لا يقتصر البناء الصرفي لسورة (الحِجر) على الصيغ الصرفية ذات الجزء الواحد (الصيغ الصرفية البسيطة)، وإنما يلجأ التعبير القرآني إلى استخدام الأبنية الصرفية ذات الجزأين (الصيغ الصرفية المركبة). والمقصود بالصيغ الصرفية المركبة في المفهوم الصرفي: هو تركيب صيغة صرفية من طريفين يؤديان دلالة واحدة.

وقد نبَّه عدد من الباحثين المحدثين إلى أن الصيغ الصرفية المركبة وقعت في كثير من النصوص الموثوق بصحتها وفصاحتها. وإن لم يدرسها البحث العربي القديم بهذه التسمية، يقول الدكتور مهدي المخزومي عن هذه الصيغ المركبة: " شاعت في الاستعمال، ورددتها ألسنة المتكلمين، وحفظتها النصوص التي انحدرت إلينا عنهم أمثال: قد فعل، كان قد فعل، كان فعل. ومر بها النحاة على عجل، ولم يطيلوا الوقوف عندها أو يلاحظوا جدواها أو يلتفتوا إلى ما كانت العربية ترمي إليه من استحداث مثل هذه الأبنية، ولم يدركوا ما كان بين صيغة (فعل) وما اتصل بها في الاستعمال من تلازم جعل من الصيغة وسابقتها مركبا بمنزلة الكلمة الواحدة ذات الدلالة الواحدة"(١). بينا اللغويون المحدثون نظروا إلى هذه الصيغ الصرفية المركبة على أنها مما "ينبغي أن يناقش ضمن أبواب الصرف؛ لأن هذه الصيغ المركبة من (كان أخواتها) والفعل تدل بتركيبها على معنى لا يحقق بـ (كان) وحدها أو بالفعل وحده. أما الأحكام النحوية لكان وأخواتها وأنواع خبرها فمكانها كتب النحو"(٢).

ومن الصيغ المركبة في سورة (الحِجر) أربع صور:

الصورة الأولى: قد + الفعل الماضي.

الصورة الثانية: قد + الفعل المضارع.

الصورة الثالثة: كان + الفعل المضارع.

الصورة الرابعة: ظل + الفعل المضارع.

---

(١) المخزومي، مهدي، في النحو العربي نقد وتوجيه، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤، ص ١٤٨،١٤٩.
(٢) نحلة، دراسات قرآنية في جزء عم، ص١٦٨.

الصورة الأولى: قد + الفعل الماضي.

ووردت هذه الصيغة الصرفية المركبة في ستة مواطن متضمنة فعلا ماضيا مثبتا، "وتدل على حدوث الفعل الماضي إما في وقت قريب وإما على سبيل التأكيد"(١). والآيات هي:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠})

(لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣})

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦})

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤})

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦})

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجرِ الْمُرْسَلِينَ{٨٠}).

والغالب على هذه الآيات أنها وردت في سياق الحديث عن دلائل وحدانية الله Y: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا، وَلَقَدْ جَعَلْنَا، وَلَقَدْ عَلِمْنَا، وَلَقَدْ عَلِمْنَا، وَلَقَدْ خَلَقْنَا). وأنها التزمت نمطا صرفيا واحدا، في أربع آيات؛ إذ جاءت على الشكل التالي: الواو + لام القسم + قد + فعل ماض + نا الفاعلين، والجمل كلها مثبتة.

والملاحظ من هذه الصورة أنها تضمنت معنى التأكيد في صيغتها المركبة من (قد + الفعل الماضي). فمن المقرر أن (قد) تفيد التحقيق مع الماضي، والتحقيق هو التأكيد. ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن هذه الأداة " منقولة ـ في رأي كثير من علماء اللغة ـ عن الفعل (قَدَّ) بمعنى قَطَعَ، ومن ثَمَّ أفادت القطع أو التأكيد"(٢). ثم نلاحظ اقتران (قد) بلام القسم قصد الزيادة في التأكيد، إذ " تمتاز هذه اللغة الشريفة بأنه من الممكن زيادة هذا التأكيد إذا اقتضى الحال، وذلك بإضافة لام التأكيد قبل (قد)"(٣). ثم زاد التأكيد باقتران الصيغة المركبة بضمير الفاعلين (نا) وهو عائد على الله Y، وجمعه على سبيل التعظيم والإجلال. ولعل التعبير القرآني قصد إلى تكثيف التأكيد؛ ليخرج بالفعل الماضي من مجرد وقوع الحدث في الماضي إلى إثبات تفرد الله Y بالإلهية؛ بالتأكيد على الدلائل الواضحة، مما يضطر معه المنكر إلى الإقرار بذلك. فالله Y ذو قدرة عظيمة؛ إذ أرسل الرسل ـ عليهم السلام ـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠})، وخلق السماوات وما فيها من بروج (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦}). وخلق الإنسان (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦. وهو Y ذو علم واسع

---

(١) عبد القادر، حامد، معاني الماضي والمضارع في القرآن الكريم، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج١٠٢، ١٩٥٨، ص٦٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٩.

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤}).}). "وافتتح الكلام بلام القسم وحرف التحقيق تنزيلا للمخاطبين الذاهلين عن الاستدلال بذلك منزلة المتردد، فأكد لهم الكلام"(١).

الصورة الثانية: قد + الفعل المضارع.

وردت هذه الصيغة مرة واحدة، وهي تحمل طاقة دلالية كثيفة اقتضاها السياق، قال Y: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧}). وهذه آية تحكي تحرّج النبي ε مما كان يسمعه من أقوال الشرك والاستهزاء. ودلالة الصيغة الصرفية المركبة من (قد + الفعل المضارع) تسلية النبي ε، وذلك بتحقيق استمرار علم الله Y حال نبيه ε، فيطمئن قلبه ε بأن " الله Y مطلع على تحرُّجه ε من أذاهم وبهتانهم من أقوال الشرك والاستهزاء، فأمره بالثبات والتفويض إلى ربه لأن الحكمة في إمهالهم. وليس المخاطب ممن يدخله الشك في خبر الله Y، ولكن التحقيق كناية عن الاهتمام بالمخبر(عنه)، وأنه بمحل العناية من الله Y"(٢).

الصورة الثالثة: كان + الفعل المضارع.

تسمى الصيغة الصرفية المركبة من فعل الكينونة والفعل المضارع بـ " الماضي الاستمراري أو التعودي أو النقلي، ويدل على حدوث الفعل في الزمن الماضي على سبيل الاستمرار أو التعود لمدة معينة"(٣). وقد تحقق ذلك في خمسة مواطن من سورة (الحِجر)، وهي جمل مثبتة كلها. قال Y:

(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١}).
(قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣}).
(وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢}).
(فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٤}).
(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢}عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣}).

والمتأمل في هذه المواضع كلها يجد معنى الاستمرار في هذه الصيغة المركبة مقصودا قصدا فنيا، لا يقف على قيمته التعبيرية إلا من تنبه إلى المعنى الذي تدل عليه الصيغة المركبة بجزأيها.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٢٨.
(٢) المصدر نفسه، ج١٤، ص٩٠،٩١.
(٣) عبد القادر، حامد، معاني الماضي والمضارع في القرآن الكريم، ص٦٧.

فالصيغة الصرفية المركبة في قوله Y: (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١}). تدل على استهزاء الكفار برسلهم - عليهم السلام - في كل زمان، وأن هذا ديدنهم وسنتهم، فـ(كان) دلت على أنه طبع فيهم، والمضارع دل على تكرر صدور الاستهزاء منهم. ومثل هذا متحقق في قوله Y: (قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣}). فشكُّ القوم الكافرين بحلول عذاب الله Y بهم دائم لا ينقطع، إذ هم يكفرون بالله Y، وهم بذلك يستحقون أشد العذاب.

وفي قوله Y: (وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢}). وقوله Y:(فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٤}). نتلمس حسن بلاغة القرآن الكريم، وجودة نظمه؛ إذ اعتمد في تصوير منعة بيوت أصحاب الحِجر على الصيغة ذاتها مرتين (كَانُواْ يَنْحِتُونَ، كَانُواْ يَكْسِبُونَ). ولعل لهذا التتابع في الصيغة إشارة لطيفة، وإيماءة بديعة؛ إذ يمكن لسياق الآية أن يكتفي بصيغة واحدة نحو (كَانُواْ يَنْحِتُونَ) ويعبر عن الأخرى بلفظ (بيوتهم) مثلا. لكن بيوتهم هذه إنما هي حصون في الصخر محكمة الصنعة، فـ (كَانُواْ) تفصح عن هذه البيوت التي عنوا بتحصينها وتحسينها، وفعلا المضارعة (يَنْحِتُونَ، يَكْسِبُونَ) يدلان على التكرر والتجدد المكنى به عن إتقان الصنعة. ولكنها لم تغن عنهم من عذاب الله من شيء.

وفي قوله Y: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢}عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣}). معنى التهديد والوعيد، جزاء ما كان الكفرة يعملون، والتعبير بفعل الكون في قوله Y: (كَانُوا يَعْمَلُونَ) دون أن يقال: (ما عملوا) يدل على تمكُّن الكفر من أعمالهم، واستقراره فيها. والتعبير بالمضارع للدلالة على تكرر أعمالهم القبيحة ومعاودتهم لها، فيتحصل من اجتماع معنى الاستقرار والتكرر أن أعمالهم القبائح متكاثرة، وهذا يقتضي أنه قد صارت سجية لهم، فلا يقلعون عنها، وإذا كان كذلك استحقوا عذاب الله Y ووعيده.

الصورة الرابعة: ظل + الفعل المضارع.

يرى الدكتور المخزومي أن دلالة استمرار الحدث في فترة من الزمن الماضي لا تقتصر على صورة (كان + فعل مضارع) بل إن مثل هذه الدلالة تتحقق أيضا مع (أمسى، وبات، وأصبح، وظل) بدلا من (كان)[١].

وجاءت هذه الصورة مرة واحدة، في قوله Y: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{١٥}). لتفصح عن مكابرة المشركين وعنادهم، إذ لو أنهم استمروا في الصعود بأجسامهم إلى السماء مرة تلو الأخرى كما دل عليه فعل (ظَلُّواْ)، وتكرر منهم هذا الصعود المستمر كما تدل عليه صيغة المضارع (يَعْرُجُونَ) لأنكروا أن يكونوا رأوا شيئا. وذلك لأنهم " قوم مكابرون، مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف"[٢].

---

(١) انظر: المخزومي، في النحو العربي، ص١٥٦

(٢) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٢٩.

المستوى النحوي(التركيبي).

تعنى الدراسة الأسلوبية بالاختيار النحوي، وهو كما يعرفه إبراهيم خليل: " انتقاء المتكلم أو الكاتب وجها من وجوه النحو؛ لأنه الأدق في توصيل المعنى، أو الأكثر تلاؤما مع القاعدة النحوية، ويدخل تحت هذا النوع من الاختيار الكثير من مفهومات البلاغة، مثل الفصل والوصل، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف"(١). ولعل ما يوضح الفرق بين علم النحو وعلم البلاغة ما أشار إليه صاحب الطراز بقوله: " فالنحوي ينظر في التركيب من أجل تحصيل الإعراب؛ لتحصل كمال الفائدة. وصاحب علم المعاني ينظر في دلالته الخاصة، وهو ما يحصل عند التركيب من بلاغة المعاني، وبلوغها في أقصى المراتب"(٢). ومهمة الدارس الأسلوبي هي دراسة تلك الاختيارات النحوية؛ للوصول إلى ما في النص من لطائف بيانية.

أولا: اختيارات نحوية خاصة بسورة (الحِجر).

تفردت سورة (الحِجر) بثلاث مسائل نحوية ميزتها من باقي سور القرآن الكريم، وسنتناول هذه المسائل بالدرس حسب ترتيب ورودها في السورة.

١. قوله Y: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢}).

٢. قوله Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}).

٣. قوله Y: (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧}).

١. قوله Y: (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢}).

تسمى سورة (الحِجر) بسورة (رُّبَمَا)؛ لأن كلمة (رُّبَمَا) لم تقع - على كثرة وقوعها في كلام العرب - في القرآن كله إلا في أول هذه السورة(٣). وفي لفظها سبع عشرة لغة، وفي مفادها ثمانية أقوال. وقد فصَّل القول فيها العلامة الألوسي في تفسيره(٤). وما يعنينا في الدراسة هو الوقوف على اللمسات البيانية من استخدام هذا التركيب. والذي عليه مصحفنا ضم الراء وتخفيف الباء وفتحها (رُبَ)، وهذا عدول بها عن أصلها المشدد(٥). ونختار في مفادها أنها للتقليل دائما - "وهو قول الأكثرين"(٦)-؛ إذ بهذا الاختيار تستقيم دلالة الآية صوتا ومعنى،

(١) انظر: خليل، إبراهيم، الضفيرة واللهب، ص٣٩.
(٢) العلوي، الطراز، ج١، ص١٧.
(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٥.
(٤) انظر: الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٤،٥.
(٥) ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد(ت ٣٧٠هـ/٩٨٢م)، الحجة في القراءات السبع، (تحقيق عبد العال سالم مكرم)، دار الشروق، بيروت، ١٩٧١، ص١٧٩.
(٦) الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٥.

فالتخفيف يناسب التقليل، والتشديد يناسب التكثير. وللتقليل في معناها هنا دواع بيانية، وأغراض بلاغية، منها:

١. التخويف والتهديد؛ إذ المرء يخشى قليل الندم، بله كثيره. فمعنى التقليل: "أنه يكفيكم قليل الندم في كونه زاجرا لكم عن هذا الفعل، فكيف كثيره؟"[١].

٢. التهكم بالكافرين؛ فالعاقل يتحرز من فعل ما يجره إلى الندم ولو كان قليلا، أما هؤلاء الكافرون فلا عقولهم لهم؛ إذ رضوا بالكفر الذي سيسوقهم إلى أشد الندم في الدنيا والآخرة.

٣. قلة تندمهم لانشغالهم بالعذاب في الآخرة، وهذا على قول من رأى ودادتهم الإسلام في الآخرة لا الدنيا، ـ والأولى حمل المعنى عليهما ـ؛ فـ"هم مشغولون بغمرات الأهوال فلا يفيقون بحيث يتمنون ذلك إلا قليلا "[٢]. أما في الدّنيا فقليلا ما يتندمون لانشغالهم بالملذات والشهوات.

٤. إظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض، "فمن عادة العرب أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظا وضع للتقليل. والمقصود منه: إظهار التوقع، والاستغناء عن التصريح بالغرض"[٣].

٥. التنبيه بالأدنى على الأعلى.

٦. " الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الضد، وذلك شأن كل ما بلغ نهايته أن يعود إلى عكسه"[٤].

٧. جذب الانتباه؛ إذ السياق يقتضي تكثير الكافرين من التندم، فوردت عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل، مما يوقظ السامع، ويستوقف الفكر.

٨. الحث على الإسلام؛ إذ التقليل في الآية " وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك. ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: ولو كان الندم قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٥٣.
(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص٢٦١ .
(٣) الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٥٣.
(٤) ابن منير، ناصر الدين أحمد بن محمد (ت٦٣٨هـ/ ١١٥٠م)، كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، حاشية على الكشاف للزمخشري، ط١، (تحقيق عبد الرزاق المهدي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧، ج٢، ص٥٣٦.

الفعل. وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة، فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودّونه كل ساعة"[١].

٢. قوله Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}).

وتوسط الواو في قوله: (إِلاَّ وَلَهَا) لم يرد في القرآن إلا في هذه الآية، وفي إعراب قوله Y: (وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ) قولان. القول الأول: " جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف"[٢]. والقول الثاني: "حال من الـ(قرية)، وهي لازمة"[٣]. ثم يزداد التأكيد على المعنيين في الآية التي بعدها بقوله Y: (مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥}). ويتناسب كل من معنى لصوق الصفة، أو لزوم الحال مع المعنى العقلي للآية؛ إذ امتناع الانفكاك والإهلاك عن الأجل المقدر مستحيل عقلا. أما ما جاء في قوله Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ) (الشعراء:٢٠٨). دون توسُّط الواو للتأكيد؛ فذلك لأن امتناع الانفكاك والإهلاك عن الإنذار عادي جرت عليه السنة الإلهية، وقد يتخلف[٤].

٣. قوله Y: (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧}).

وخُصَّت سورة (الحِجر) بـ (لوما) موافقة لقوله Y: (رُّبَمَا)، وقوله: ((إِلاَّ وَلَهَا). وهي: "حرف يدل على التحضيض، ويختص بالفعل"[٥]. ولعل التعبير القرآني عدل إلى (لوما) دون (لولا) ليفضح المشركين، فهم يحضون النبيε أن يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له، أو ليعاقبوهم على تكذيبهم، بحسب ما يدَّعيه ε لا بحسب اعتقادهم الفاسد، فقد عبَّر الله Y عن اعتقادهم بقوله Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}). فاسترعى التركيب الانتباه إلى أن كلام هؤلاء المشركين وحضهم إنما هو على سبيل التهكم والاستهزاء، لا كلام من يبحث عن الحق ليستمسك به.

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٣٣،٥٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٣٤.
(٣) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج١١، ص٤٢٨
(٤) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٣، ص٢٩١.
(٥) ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن جمال الدين(ت ٧٦١هـ / ١٣٧٣م)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ط١، (تحقيق ح. الفاخوري)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩، ج٤، ص١٣٣.

ثانيا: التقديم والتأخير.

يتم ترتيب الألفاظ في النص الأدبي من تقديم وتأخير نتيجة عمليات ذهنية سابقة لعملية الكلام والنطق به، فالنّظم: هو " ترتيب الألفاظ في النطق تبعا لترتيب المعاني في النفس"(١). وبالقواعد النحوية تنتظم الألفاظ، نحو تقديم المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل (الزمان والمكان الذي يقع فيهما الفعل، الجار والمجرور، الحال، المفعول) وتأخيرها، وذلك " أن ليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو، وأحكامه، ووجوهه، وفروقه فيما بين معاني الكلم"(٢). ولأهمية التقديم والتأخير يقول عبد القاهر الجرجاني: "هو باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، ولا يزال يَفتَرُّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قُدِّمَ فيه شيء، وحوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان"(٣). ومن الأغراض المعنوية التي أظهرها التقديم والتأخير في سورة (الحِجر).

١. الآجال بيد الله Y.

يقول Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥}). قدّم التعبير القرآني سبق الإهلاك على تأخيره؛ لمناسبة طلب المشركين من النبيε أن يُنزِّل عليهم الملائكة (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧})، ولو نزلت لنزل معها هلاكهم. فاقتضى أن يقدّم (مَّا تَسْبِقُ) ليدل على أنهم استعجلوا الأجل كأنما أرادوا أن يسبقوا ما قدره الله Y لهم من أجل. وهذا نظير قوله Y: (وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ){الأنفال:٣٢}.

٢. تهكم المشركين بالنبي ε .

وفي قوله Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}). تقدم الجار والمجرور (عَلَيْهِ) على نائب الفاعل (الذِّكْرُ)، فلم يكن الترتيب (نُزِّلَ الذِّكرُ عليه) وإن جاز نحويا؛ لأن الآية تصور تهكم المشركين بالنبي ε أن يكون رسولا يُنزَّل عليه القرآن، فليس النبيε برأيهم الفاسد عظيما حتى يُنزَّل عليه قرآن من السماء. نحو ما أخبر الله Yعنهم: (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ

(١) عباس، فضل، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، ص٢١٣.
(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٣.

عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)(الزخرف:٣١). فقدم الجار والمجرور (عَلَيْهِ) لأنه محل اعتراض المشركين.

٣. إيجاز القرآن في الجواب، وقوّته في الرّد.

وفي قوله Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦} لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧} مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨}). يسأل المشركون رسول الله ε نزول الملائكة علامة على صدقهε، (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، وبعدول أسلوبي يقدّم التعبير القرآني تعليل الجواب (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ) ـ لأن الملائكة لا تنزل إلا بعذاب الاستئصال ـ، ويؤخِّر الجواب (مَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ) ـ فسؤالكم نزول الملائكة يعني استئصالكم بعذاب ـ. وتقدير الكلام: لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين، إذن ما كنتم منظرين بالحياة، ولعُجِّلَ لكم الاستئصال؛ إذ ما تنزل الملائكة إلا مصحوبين بالعذاب الحاق. فقدّم وأخّر؛ لأنه " أوقع في الرَّد، ولأنه أسعد بإيجاز الجواب"(١).

٤. الاختصاص.

وفي قوله Y: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). تقدَّم المجرور في (لَهُ) على (حَافِظُونَ)، والقصد من ذلك ـ على الراجح من عود الضمير على الذّكر ـ تخصيص تولي الله Y حفظ القرآن الكريم من الزيادة والنقصان، دون سائر الكتب السماوية الأخرى التي دخلها التصحيف والتغيير والتحريف.

وفي قوله Y: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١}). تقدمت شبه الجملة (عِندَنَا) على (خَزَائِنُهُ)؛ لإثبات اختصاص الله Y وحده بالقدرة على تكوين الأشياء وإيجادها، ونفي أن يكون أحد غيره Y يفعل ذلك.

٥. المبالغة.

وفي قوله Y:(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١}) تقدّم المجرور في (بِهِ) على (يَسْتَهْزِئُونَ)، فأفاد " القصر للمبالغة، أي أن الكافرين لما كانوا يكثرون الاستهزاء برسلهم،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص١٩،٢٠.

وصار ذلك سجية لهم، نزلوا منزلة من ليس له عمل إلا الاستهزاء بالرسل ـ عليهم السلام ـ"[١].

٦. التشويق.

وفي قوله Y: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠}). تكرر تقدم الجار والمجرور (فيها)، قصد التشويق لمعرفة ما في الأرض من دلائل وحدانية الله Y، ونِعَمِه على عباده. ونضيف ـ هنا ـ معنى زائدا على التشويق في قوله Y: (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠}). فهذه الجملة ترتبت ألفاظها بما أكسبها تنوعا في المعنى. وتقدير الكلام فيها على وجهين: الأول: أن يكون (وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) عطفا على الضمير في (لَكُمْ)، أي جعلنا لكم أيها الناس في الأرض معايش، وجعلنا في الأرض معايش لمن لستم له برازقين. ومعناه أن الله Y هو الذي يرزقكم أيها الناس، ويرزق من تظنون أنكم رازقوهم من عيالكم وخدمكم ودوابكم، ولولاه سبحانه لم يحصل لأحد رزق. "وإنما أطلق عليها صيغة (مَن) تغليبا لجانب العقلاء على غيرهم"[٢]. والثاني: أن يكون (وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) عطفا على (مَعَايِشَ). ومعناه أن ما تظنون أنكم تملكونه أيها الناس من عيال وخدم ودواب إنما هو ملك لله Y يَمنُّ به عليكم؛ لعلكم تشكرون.

٧. التعظيم والاهتمام.

وفي قوله Y:(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩}) تقدم الجار والمجرور(فِيهِ) ليظهَر تعظيم الله Y لآدم ـ عليه السلام ـ. وقال Y: (فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{٦١}) فقدّم المفعول (آلَ لُوطٍ) اهتماما بهم، فهم المقصودون من مجيء الملائكة، إذ منهم الناجون، ومنهم الهالكون. ولست أرى أن التقديم والتأخير في الآية مرده مراعاة الفاصلة حسب ـ كما يذهب إليه بعض المفسرين ـ؛ إذ " الكلام البليغ لا يجوز أن يكون التقديم فيه لغرض لفظي فقط، بل يكون مع هذا الغرض اللفظي هدف يتعلق بالمعنى"[٣].

---

(١) انظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٢٣.
(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٧٣.
(٣) عباس، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، ص٢١٧.

٨. تقوية الحُكم.

وفي قوله Y: (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥}). تقدم الجار والمجرور(عليك). وليس اللعن خاصا بإبليس؛ إذ لعن الله Y غيره، كاليهود ـ لعنهم الله ـ، وإنما تقدم الجار والمجرور؛ تأكيدا على أن إبليس مستحق للعن؛ إذ أبى السجود لآدم ـ عليه السلام ـ كفرا وعنادا. ويقوي هذا ذكر (على) "وهي مستعملة في الاستعلاء المجازي، وهو تمكن اللعنة والشتم منه حتى كأنه يقع فوقه"(١).

٩. تنعُّم أهل الجنة.

وفي قوله Y: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥} ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ{٤٦}) قدّم التعبير القرآني السلامة على الأمن، إذ " المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال، ومع القطع ببقاء هذه السلامة، والأمن من زوالها"(٢).

ثالثا: الحذف.

وهذا موضوع من أدق أبواب البلاغة وأخطرها، وأدعاها لإنعام النظر. فقد وضعه ابن جني على رأس باب في الشجاعة العربية(٣)، ووصفه الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى فيه ترك الذِّكر أفصح من الذِّكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة"(٤). فالحذف الذي سندرس هو الحذف الذي لا يخل في شرط التوصيل والإفهام، إذ "يرجع حسن العبارة في كثير من التراكيب إلى ما يعمد إليه المتكلم من حذف لا يغمض به المعنى، وإنما هو تصرف تصفى به العبارة، ويشتد به أسرها، وهو من جهة أخرى دليل على قوة النفس وقدرة البيان"(٥).

ولعل من المفيد ـ قبل التفصيل في العلل البيانية للحذف في السورة ـ ذكر الغرض البياني المجمل من الحذف حيث وجد، وهو أننا " نحذف حينما نجد في المحذوف خفة واختصارا من حيث اللفظ، وفائدة ذات أثر بياني من حيث المعنى"(٦). ويندرج تحت هذا الغرض ما يقتصر

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٤٧.
(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٩٢.
(٣) ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٣٦٠.
(٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٤٦.
(٥) أبو موسى، محمد، خصائص التركيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٠، ص١١١.
(٦) انظر: عباس، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، ص٢٧٠

عليه البعض في تعليل الحذف إجمالا، نحو قولهم: وحُذِف لدلالة المقام عليه، أو للعلم به، أو للإيجاز والاختصار. ولكن التأمل في الحذف يقتضي التفصيل في علله استظهارا لما يتضمنه من نكت بلاغية، وأغراض بيانية، لا سيما ما جاء منه في القرآن الكريم.

فمن الحذف الذي جاء في سورة (الحِجر) قوله Y: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣}). فهذه آية سيقت في معرض تهديد المشركين ووعيدهم، وقد ساهم الحذف في تأكيد هذا المعنى وتقويته، إذ ورد مرتين في أول الآية وآخرها، أما الأول، فقوله: (ذَرْهُمْ) تعدى فيه الفعل إلى مفعوله بتقدير مضاف، أي: ذر دعوة المشركين، وذلك "لأن الفعل نزل منزلة ما لا يحتاج إلى متعلق، إذ المعني به ترك الاشتغال بهم والبعد عنهم، فلذلك عُدِّي فعل الترك إلى ذواتهم ليدل على اليأس منهم"(١). وأما الثاني، فقوله: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وفيه حذف المفعول؛ لتتوارد على أفئدتهم جميع أصناف الجزاء والعذاب؛ فيرهبون. ومما يفقد قيمة الحذف وفائدته، تقدير المحذوف بعذاب ما، " فعليك إذن أن تتناسى المحذوف، وأن تسقطه من النفس كما أسقط من اللفظ؛ لأنه يطلب منك أن تحذفه من نفسك فلا تخطره بوهمك؛ لأن هذا يفسد مذاق العبارة"(٢). ونحوه ما ورد في قوله Y:(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦}).

ومن الحذف الذي تعدى فيه الفعل إلى مفعوله بتقدير مضاف ما ورد في قوله Y: (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ{٧٠}). وهذه خطاب قوم لوط ـ عليه السلام ـ لوطا ـ عليه السلام ـ. والعالمين: هم الرجال الذين يمرون بقوم لوط ـ عليه السلام ـ. والتقدير: أولم ننهك يا لوط عن حماية الناس. وتعدية النهي إلى ذات العالمين تعبير عن شدة إنكار قومه أن يجير أحدا من الناس، ولو كانوا ضيوفه. فيظهر ما كانوا عليه من قبح وخبث.

ومن حذف الموصوف والبقاء على الصفة ما ورد في قوله Y:(مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨}). والحق هنا صفة لمحذوف. وبسبب الحذف تعددت المعاني، وتنوعت الدلالات، فقيل معنى نزول الملائكة بالحق: أي نزولهم بـ " العذاب، أو الرسالة، أو قبض الأرواح عند الموت، أو بالحكمة والمصلحة، أو بما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أرادها الله Y لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض"(٣).

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص١٣.
(٢) أبو موسى، خصائص التركيب، ص١٢٩.
(٣) انظر، أبو حيان، البحر المحيط، ج٦، ص٤٦٧.

ومن حذف الصفة والبقاء على الموصوف ما ورد في قوله Y: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١}). وفي الكلام حذف الصفة في قوله: (وَإِن مِّن شَيْءٍ..). يقول العلامة أبو حيان الأندلسي: " والظاهر أن المعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده، وتكوينه، والإنعام به"(١). فقدروا المحذوف بـ (نافع)، وعلى هذا تكون علة الحذف " احتراز عن العبث بناء على الظاهر"(٢)؛ إذ السياق يدل عليه، فهو يخبر عن نِعَم الله Y التي يُنتَفع بها. ولكني أرى في تقدير المحذوف بـ (نافع) ما يقلل من بلاغة التعبير، ودلالة الكلام. فالسياق في دلالته الخاصة يتحدث عن نِعم الله Y؛ فصحَّ تقدير المحذوف بـ (نافع)، ولكن الدلالة العامة للسياق تتحدث عن دلائل وحدانية الله Y؛ بما يفصح عن كمال القدرة الإلهية، فكل شيء نافع أو ضار في هذا الوجود إنما هو تحت قدرة النافع الضار Y.

ومن حذف الفعل والفاعل، ما ورد في قوله Y:(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥} ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ{٤٦}). في الآية حذف للفعل، فقوله: (ادْخُلُوهَا) يحتاج إلى إضمار فعل، أي فقيل لهم: (ادْخُلُوهَا). ثم الفاعل محذوف، وتقديره: الله Y أو بعض ملائكته. والتعبير القرآني إذ يحذف هذا فهو يقصد منه توجيه المخاطَبين إلى نفس الحدث، والاهتمام به. فالذي يريده القرآن أن يرغب الناس في تلك الجنّات، فيتصوروا أنفسهم واقفين على أبوابها منتظرين الإذن في الدخول؛ حتى ينعموا بما فيها من نِعَم وخيرات.

ومن حذف المفعول ما ورد في قوله Y: (قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ{٥٣} قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ{٥٤}) وتكرر حذف المفعول مرتين في الآية ومع الفعل نفسه، في قوله: (أَبَشَّرْتُمُونِي)، و(تُبَشِّرُونَ)؛ وهما على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ الأمر الذي يصور لنا السرور والعجب اللذين ملآ نفس إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالبشارة، حتى بدا وكأنه يستبعد ذلك، وما هو بمستبعده. فكرر ذكرها دون ما جاءت به وهو الغلام (أَبَشَّرْتُمُونِي)، ودون ذكر صاحبها(تُبَشِّرُونَ). ولعل استفهام إبراهيم ـ عليه السلام ـ بما يحمله من تعجب يعزز ما نذهب إليه. ثم لا داعي للانشغال بالمفعول في الحالتين؛ لكونه معلوما من جهة، ولأن

---

(١) المصدر نفسه، ج٦، ص٤٧٤.
(٢) القزويني، جمال الدين محمد بن عبد الرحمن(ت ٧٣٩هـ/ ١٣٥٧)، الإيضاح في علوم البلاغة، ط٣، (شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ج٢، ص٤.

المعجزة الدالة على قدرة الله Y لا تتعلق بـه، فليست المعجزة في كون المبشَّر بـه غلام وليس أنثى، أو أن المبشَّر إبراهيم ـ عليه السلام ـ دون سواه من الرجال، وإنما البشارة نفسها المعجزة الدالة على قدرة الله Y، كما قال Y: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) {هود:٧٢}.

ومن حذف المتعلق ما ورد في قوله Y: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤}). فحذف متعلق (تُؤْمَرُ) ولم يصرح بنحو (بتبليغه، أو بالدعوة إليه)؛ قصدا لشمول الأمر، أي بلغ كل ما أمرت به يا محمد ε.

ومن إيجاز الحذف ما ورد في قوله Y: (قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩}). وهذه حكاية لخطاب الملائكة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لمعنى عباراتهم محولة إلى تركيب موجز غير مخل يفيد معنى كلامهم؛ إذ تقدير الكلام: إنَّا أرسلَنا اللهُ Y إلى لوط ـ عليه السلام ـ لأجل إنزال العذاب بقومه المجرمين.

ومن الحذف ما يكون في الجمل، ولا سيما في السرد القصصي؛ إذ من جماليات السرد القصصي أن يفضي بعضه إلى بعض، وقد حذفت منه الأحداث التي تعلم من السياق، مما يعطي المتلقي مجالا للمشاركة والانفعال مع الحدث. وفي الوصول إلى هذا المستوى من التركيب ما يكشف عن جوانب من الوحدة الموضوعية داخل النص الأدبي. يقول Y: (فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{٦١} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٦٢}). وهنا يحذف التعبير القرآني ما هو معلوم من مفارقة الملائكة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد محاورته، ثم ذهابهم إلى لوط ـ عليه السلام ـ، مختصرا الزمان والمكان، إذ التركيز يكون على الأحداث المهمة الدالة على مغزى القصة.

وهذا النوع من الحذف من السمات المتكررة في القصص القرآني المكي؛ "وذلك لأن عاطفة النبي ε كانت في ذلك الطور قوية جياشة مندفعة، فتنزلت الآيات عليه بانتقالات فجائية سريعة، ظهرت في القصة القرآنية "(1).

---

(١) خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص٣٠٤.

رابعا: التأكيد.

للتأكيد في العربية أدوات وطرق يستعملها القرآن الكريم على وفق المقام. وقد ذكرنا أطرافا منها في مباحث عدة من الدراسة، نحو الحديث عن دلالة ضمير الفصل، والصيغ التركيبية وغيرها. وسندرس في هذا المبحث أدوات وطرقا أخرى للتأكيد. متلمسين مواطن البلاغة فيها.

فمن أدوات التأكيد في سورة الحِجر(إنَّ)، وهي الأصل في التوكيد، يقول عبد القاهر الجرجاني: "ثم إن الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه البناء هو الذي دوِّن في الكتب من أنها للتأكيد"(١). وكثيرا ما استعملت في كتاب الله Y، وكثيرا ما يذكر معها لام الابتداء. وقد توزع ورودها مع لام الابتداء على حسب مقام المخاطبين؛ إذ مقام المنكر يختلف عن مقام الشاك المتردد، وهذا يختلف عن خالي الذهن الذي لا شك ولا تردد عنده. فعند الحديث عن قضية التوحيد، وما ينتظر المنكرين من الوعيد، أو عند الحديث عما نزل بالأقوام السابقة من العذاب، نجد التأكيدات تحتشد؛ إذ الآيات تخاطب كل منكر، وتتوعده بأشد العذاب؛ فوجب التأكيد في الخطاب، ويلحقها في التأكيد (أنّ) مفتوحة الهمزة.

يقول Y:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). (إنّ + نحن + إنَّ + اللام).

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ{٢٣}).(إنَّ + اللام + نحن).

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}). (إنَّ + هو + إنَّ).

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٣}). (إنَّ + اللام).

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩}وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{٥٠}).(أنَّ +أنا +أنَّ + هو).

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ{٧٢}). (لام القسم + إنّ + اللام)

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥}). (إنَّ + اللام)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{٨٥} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦}). (إنّ + اللام + إنَّ + هو).

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩}). (إنَّ + أنا).

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣}). (لا القسم + نون التوكيد الثقيلة).

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٥٠.

وتتجلى فنية التأكيد في التعبير عن خطاب الله Y عباده المتقين واعدا إياهم الجنة، يقول Y: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥}). فالتعبير القرآني يكتفي بـ (إنَّ) وحدها، إذ المؤمن مطمئن لوعد الله Y، فيكفيه الخبر ولو لم يؤكَّد، بينا جاء خبر وعيد الله Y المشركين المنكرين جهنم بتأكيدين،(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٣}).(إنَّ + اللام). ولأن وعد الله Y المؤمنين الجنة من الأمور التي لها تعلق بالتوحيد الذي أنكره المشركون أشربت الآية معنى التأكيد؛ لإزالة الشك.

وفي قوله Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}) يصور التأكيد إنكار المشركين الإسلام، وشدة استهزائهم بالنبي ε، إذ تأكد الخبر بمؤكدين (إنَّ + اللام).

وفي قوله Y: (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٣٧} إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٣٨} قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢} وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٣}) نلاحظ أن مخاطبة الله Y إبليس تتضمن التأكيد بـ(إنَّ) وحدها (فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ، إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، إِنَّ عِبَادِي) بما يزيل الشك. بينا خطاب إبليس تضمن التأكيد بالنون الثقيلة ولام القسم المحذوف (لأُزَيِّنَنَّ، لأُغْوِيَنَّ) وذلك للتعبير عن شدة ما يحمله إبليس من عداء وكيد لآدم - عليه السلام - وبنيه؛ فيحذروه.

ونجد التعبير القرآني في سورة (الحِجر) يكثف من المؤكِّدات في قصة لوط - عليه السلام -، يقول Y:(قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠}). فعدد المؤكدات سبعة وهي: (إنّ) وتكررت ثلاث مرات، و(اللام) مرتين في (لَمُنَجُّوهُمْ، لَمِنَ)، و(مُنَجُّوهُمْ) اسم، و(أَجْمَعِينَ). ولعل هذا التكثيف من المؤكِّدات يفصح عن شدة قبح أفعال قوم لوط - عليه السلام -، مما ناسب وصفهم بأشد الأوصاف قبحا، وهو الإجرام (قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)، كما أنّ عذابهم كان شديدا، قال Y: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ{٧٣} فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{٧٤}). فناسب التشديد في الوصف والعقاب التشديد في التأكيد.

ومن المؤكدات في القصة قوله Y: (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٦٢} قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣} وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{٦٤}). "وهذه المؤكدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه. وهو في حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم في وجه قومه، فجاءه التوكيد بعد التوكيد (إِنَّا لَصَادِقُونَ)(إنّ + اللام)؛ لإدخال الطمأنينة عليه"[1].

ومما تجدر الإشارة إليه، ما حملته (إنّ) من محسن بلاغي؛ إذ عملت على ربط الجملة بما قبلها، بحيث لو أسقطتها لذهب حسن النظم ورونقه، وأصبح الكلام مفككا، لا ميزة فيه. ومنه قوله Y: (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{٧٤} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥} وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ{٧٦} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ{٧٧}).

ومن أدوات التأكيد السين وسوف، وهما حرفان يدلان على التأكيد إن دخلتا على فعل مضارع فيه معنى الوعد أو الوعيد. وورد منهما حرف (سوف) على معنى الوعيد حسب. قال Y: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣}). وقال Y: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦}).

وقد يكون التوكيد بغير الأدوات، أي بطرق أخرى، نحو قوله Y:(فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠}). فهذه الآية عنوان لاستجابة الملائكة، وفيها تأكيد على تأكيد؛ وذلك "للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص"[2]، أي لم يتخلف عن السجود أحد من الملائكة. والمبالغة في التأكيد تأتي في مقابلة رفض إبليس السجود؛ لتفصح عن استغناء الله Y عن إبليس، وافتقار إبليس لله Y. وهذا نظير قوله Y: (إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ){الأعراف/٢٠٦}.

والمبالغة في التأكيد بالسجود؛ " لأنه لما بالغ في السورة في الأمر بالسجود وهو قوله Y: (فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) بالغ في الامتثال فيهما، فقال: (فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠}) لتقع الموافقة بين أولاها وأخراها"[3].

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٤٩.
(٢) الألوسي، روح المعاني، ج١٣، ص٤٥.
(٣) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص١١٨.

ومن طرق التوكيد في سورة (الحِجر) ما جاء في قوله Y:(وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{٢٧})، إذ تأكد خلق الجآن من نار السموم بصيغة الاشتغال التي هي تقوية للفعل بتقدير نظير المحذوف، وتقديره :(خلقنا الجآن خلقناه). وتأكيد خلق الجن يقابل تأكيد خلق الإنسان في قوله Y: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦}). ولعل تضمين التوكيد في الآيتين؛ هو لبيان تحقيق نشأة العداوة بين بني آدم ـ عليه السلام ـ وجند إبليس لعنهم الله.

الفصل الرابع:

التـصـويـر الـفـنّـي

أولا: التعريف بالصورة الفنية.

يعد مصطلح " الصورة الفنية " من المصطلحات التي لم يتفق الدارسون على تعريف محدّد لها. وقد صنّفت المؤلفات وكثرت الدراسات في محاولات لتحديد ماهيتها، والكشف عن مدلولها كونها واحدة من أهم القضايا النقدية التي اهتمت بها مختلف المذاهب النقدية، فهي الوسيلة المثلى المبّينة لإبداع الكاتب في إيصال أفكاره ورؤاه، وفي تلمس مواطن الإمتاع في نَصِّه.

تطالعنا كتب النقد الأدبي العربي قديماً بمصطلح " التصوير أو الصورة " كما في قول الجاحظ في أثناء حديثه عن اللفظ والمعنى: " والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ والبدويّ والقرويّ والمدنيّ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وصحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"(١). يتضح من هذا النص أن الجاحظ يعزو الإبداع إلى الطريقة التي تتشكل بها المعاني، فالألفاظ تجسدّ المعاني وتخضعها لوزن معّين، من خلال حسن انتقائها، وسهولة مخرجها، ومناسبتها للمعنى الذي يُراد التعبير عنه. وبذلك يستخدم الجاحظ لفظة التصوير بمدلولها الحسي ليوضح بها مدلولاً ذهنياً، وهذا المدلول الذهني هو حسن تقديم المعاني بألفاظ معبرة ومنتقاة.

وترد لفظة الصورة عند أبي هلال العسكري عندما عرّف البلاغة قائلاّ: "البلاغة كلّ ما تُبلّغ به المعنى قلب السامع، فتمكّنُهُ في نفسه كتمكُّنِهِ في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"(٢). ويذكرها تارة أخرى في أقسام التشبيه، فمن أقسامه " تشبيه الشيء بالشيء صورة، وتشبيهه به لوناّ وصورة" (٣). وفي هذا إشارة إلى شكل من أشكال الصورة البلاغية وهو التشبيه، لكن مصطلح الصورة لا يرتقي عنده ليصبح مصطلحاً نقدياّ خالصاً .

وأمّا الذي طوّر مفهوم الصورة ليصبح مصطلحاً نقدياً أكثر وضوحاً واستقلالاً، فهو عبد القاهر الجرجاني الذي يقول: " واعلم أن قولنا "الصورة " إنما هو تمثيل وقياس لما نعمله بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلمّا رأينا البينونة في آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبيُّن إنسان من إنسان وفرس من فرس، بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك، وكذلك كان الأمر في المصنوعات، فكان تبيُّن خاتم من خاتم وسوار من سوار

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٣٤م) ،الحيوان، ط٣، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩، ج٣، ص١٣١-١٣٢ .
(٢) العسكري، الصناعتين، ص١٠ .
(٣) المصدر نفسه، ص٢٤٥-٢٤٦ .

بذلك، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً، عبّرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك"(١). ونستنتج من ذلك أن "الصورة " عند عبد القاهر لا تتوقّف عند تجسيد المعنى وتقديمه تقديما، إنما تتجاوز ذلك إلى التفريق والتمييز بين معنى ومعنى آخر؛ إذ يرى أنّ نظم الشعر يحتاج إلى دقّة اختيار للمعاني، بالإضافة إلى حسن انتقاء للألفاظ، وهذه المعاني على ضربين: "ضربٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلُّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. و مدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"(٢).

وبذلك يتسع مفهوم الصورة عند عبد القاهر حتى يشمل الألفاظ جميعها، سواء أدلتّ على المعاني مباشرة أم دلتّ على المعاني التي بدورها تدلُّ على معان أُخر، تلك الألفاظ التي تشكل إطاراً تنضوي تحته المعاني، أو ما يعرف بنظرية النظم.

ونجد حازماً القرطاجنيّ يقدم مفهوماً جديداً للصورة ينبثق من الحقائق المّميزة للشعر، التي حددها بـ" التخييل والمحاكاة "(٣)، بما تقوم به من تحفيز وإثارة للصورة التي ينفعل بها المتلقّي دون إعمال عقله، يقول حازم: "والتخييل أن تتمثّل للسامع من لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصّورها أو تصوُّرُ شيء آخر بها؛ انفعالاً من غير روّية إلى جهة من الانبساط، أو الانقباض "(٤).

وكذلك، اختلفت تعريفات الصورة الفنية لدى النقّاد المحدثين، وتعددت بتعدد رؤاهم وثقافاتهم، فمنهم من يعتمد اللغة أساساً لتحديد ماهية المصطلح الفني، فالباحث علي البطل يربط بين مصطلح الصورة وشكلها ويقول في ذلك: "الصورة تشكيل لغوي يكوّنها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدّة من الحواس، إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسّية والعقلية وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسّية (٥) ". وفي الإطار نفسه يعرف صالح أبو أصبع الصورة قائلا: "الصورة الشعرية تركيب لغوي

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٥٠٨ .
(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٢ .
(٣) القرطاجنيّ، حازم (ت٦٨٤هـ / ١٢٦٣م)، مناهج البلغاء وسراج الأدباء، (تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة)، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦، ص٧١ .
(٤) المصدر نفسه، ص٨٩ .
(٥) البطل، علي، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، ط١، دار الأندلس ، بيروت، ١٩٨٠، ص٣٠.

لتصوير معنى عقلي وعاطفي متخّيل لعلاقة بين شيئين يمكن تصويرهما بأساليب عدّة، إما عن طريق المشابهة أو التجسيد أو التشخيص أو التجريد أو التراسل"(١).

أما تعريف عبد القادر القط للصورة، فإنّه أكثر شمولية بما يوظفه من طاقات اللغة وإمكاناتها، ووسائل التعبير الفني وألوان البديع في تعريف الصورة؛ إذ يقول عن الصورة في الشعر: "هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والجناس وغيرها من وسائل التعبير الفني"(٢)، ويضيف إلى تعريفه: "والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني أو يرسم بها صوره الشعرية"(٣)، وبذلك فإنّ الألفاظ والعبارات ومعانيها تتشكّل في إطار الصورة حتى تعبّر عن التجربة الشعرية في القصيدة.

ويعرف عبد القادر الرباعي الصورة بالمفهوم الفني لها، فهي تعني: " أي هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن. لكن هذا المفهوم هو المفهوم العام للصورة، أما المجال التفصيلي له فيجعل الصورة تركيبة عقلية تحدث بالتناسب أو بالمقارنة بين عنصرين هما في أحيان كثيرة، عنصر ظاهري وآخر باطني، وإن جمال ذلك التناسب أو المقارنة يحدد بعنصرين آخرين هما: الحافز والقيمة، لأن كل صورة فنية تنشأ بدافع وتؤدي إلى قيمة"(٤).

ولعل ما يكشف عن تداخل التعريفات والآراء السابقة فيما بينها، بحيث يصعب التوصُّل إلى تعريف جامع مانع للصورة الفنّيّة ما قاله جابر عصفور: " ومع أنّ الصورة الفنية مصطلح حديث، صيغ تحت وطأة التأثر بمصطلحات النقد الغربي والاجتهاد في ترجمتها، إلا أن الاهتمام بالمشكلات التي يشير إليها المصطلح قديم، يرجع إلى بدايات الوعي بالخصائص النوعية للفن الأدبي"(٥).

(١) انظر: أبو أصبع، صالح، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلّة، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص٣١ .
(٢) القط، عبد القادر، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨، ص٤٣٥ .
(٣) المرجع نفسه، ٤٣٥ .
(٤) عبد القادر الرباعي ، الصورة في النقد الأوروبي، مجلّة المعرفة، العدد ٢٠٤، ١٩٧٩، ص٤٢ .
(٥) عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ط٣، المركز الثقافي العربي ، بيروت، ١٩٩٢، ص٧.

والباحث هنا لا يقصد إلى إثبات صحّة رأي أو تخطئة آخر، بل يفيد من التعريفات جميعها بما يخدم دراسة خصائص التصوير الفني في سورة (الحِجر).

ثانيا: التصوير الفني في سورة (الحِجر).

ترتبط نظرية التصوير الفني بالإعجاز البياني في القرآن، إذ بها تدرك الخصائص العامة للجمال الفني فيه. يقول سيد قطب ـ رائد نظرية التصوير في القرآن[١] ـ: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية"[٢].

ثم لا ينبغي قصر التصوير على صورة معينة أو لون خاص، مما يخرج آيات كثيرة عن طريقة التصوير، بل يجب توسيع التصوير؛ بتحسين النظر، والتعمق والتدقيق،" حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن. فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل. وكثيرا ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان"[٣]. ومن خصائص التصوير الفني في سورة (الحِجر):

١. التصوير بالتشبيه.

يعد التشبيه من الأشكال البلاغية التي لها القدرة على إبراز الصورة وإخراجها في إطار جميل، ونعني به: " الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى هو الشبه الجامع بين الطرفين"[٤].

---

(١) انظر: الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، ص١٨١.
(٢) قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، ط٨، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٦.
(٣) قطب، التصوير الفني في القرآن ، ص٣٧.
(٤) انظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج٤، ص١٦.

والتشبيه أسلوب من أساليب البيان وهو " أقرب وسيلة للإيضاح والإبانة، وأقرب وسيلة لتقريب البعيد من المعاني"(١).

واعتمد التعبير القرآني على التشبيه في سورة (الحِجر)، في قوله Y: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧}). فـ(إِخْوَاناً) حال على معنى التشبيه البليغ، مما يحرك النفوس إلى التطلع أن تكون من جملة هؤلاء الممدوحين؛ فإن "تعقيب المعاني بالتشبيه يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت أو ذما"(٢). وتقدير الكلام: أصحاب الجنة كالإخوان في الوُّد والصفاء. وهي تشير إلى الموقع الأهم بين عناصر الصورة والحدث؛ إذ لا تكون الأخوة الودودة إلا بعد أن تزال الأحقاد من النفوس وتقتلع، تماما كما تصوره ألفاظ الآية بأجراسها الموحية (نَزَعْنَا، غِلٍّ)(٣)؛ إذ العمل الأدبي والصورة الفنية "أصوات وأنغام وإيحاءات وصور وتداع للمعاني"(٤).

ومن بلاغة التشبيه ما ورد في قوله Y: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧} لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩} كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١}). فالكاف أداة التشبيه، و(ما) المشبه به، وأما المشبه فلا يفصح التعبير عنه مباشرة؛ لتتسع الصورة فتتنوع المعاني والدلالات، ومما يزيد من اتساع الصورة حذف وجه الشبه. وعليه ترسم الصورة لوحتان: الأولى، أن يكون المشبه هو الإيتاء المأخوذ من فعل (آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)، ووجه الشبه التكذيب والاستهزاء. أي أنّ قومك يا محمد ε كـ(المُقْتَسِمِينَ) في التكذيب والاستهزاء. وهذه تسلية للنبيε عن صنيع قومه بالقرآن واستهزائهم، وقولهم شعر وسحر وأساطير. والثانية، أن يكون المشبه هو الإنذار المأخوذ من قوله Y: (إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)، ووجه الشبه العقاب والهلاك. أي أن قومك يا محمدε كـ(المُقْتَسِمِين) في عقابهم وهلاكهم. وهذا وعيد صريح للمشركين المستهزئين في القرآن بأنهم سيحاسبون أشد الحساب.

---

(١) الحمداني، فالح أحمد، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، ط١، مؤسسة الوراق، عمان، ٢٠٠١، ص٨٩.
(٢) القزويني، الإسضاح في علوم البلاغة، ج٤، ص١٩.
(٣) انظر: ص ٢٠ من هذه الرسالة، مبحث إيقاع الوحدات اللغوية المتكاملة.
(٤) خليل، إبراهيم، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ط١، دار المسيرة، عمان، ٢٠٠٣، ص٧٨.

٢. التصوير بالاستعارة.

يعرِّف عبد القاهر الجرجاني الاستعارة من خلال التشبيه الذي هو أساس لها قائلا: "أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل"[(١)]. مؤكدا جانب الاختصار في الاستعارة التي هي عنده صورة مقتضبة من صور التشبيه، فيقول: "والتشبيه كالأصل في الاستعارة، وهي شبيه بالفرع له، أو صورة مقتضبة من صوره"[(٢)].

أما في النقد الحديث فإن التعريف ينعكس، إذ "بينما كانت البلاغة القديمة ترى في كل استعارة تشبيهاً مضمنا، فإن البلاغة الجديدة على عكس ذلك تنظر إلى التشبيه باعتباره استعارة مكشوفة ومباشرة ومنقوصة"[(٣)]. ويرى النقد الحديث إمكانيات تتمثل في الاستعارة؛ إذ "تغدو ضرورة تتطلبها النفس؛ لأنها نقلة هائلة ومفاجئة من واقع تجريدي جامد إلى وجود تأملي فكري شعوري، تتحرك الذات حرة في أثناء انتقالها المتصاعد لتصوغ أشياءها ورؤيتها فيه من وحي منظور خاص"[(٤)].

فمن التصوير القائم على الاستعارة (الخزائن) في قوله Y: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١}). والكشف عن جماليات التصوير يتطلب بداية فهما للمعاني والظلال التي تنبعث من الألفاظ، فـ(الخزائن) هي "ما يحفظ فيه نفائس الأموال لا غير، وغلب في العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس"[(٥)]. وليس لله Y خزائن يحفظ فيها، فهذه من الاستعارة التخييلية التي "يكون المستعار له فيها أمرا متخيلا غير متحقق"[(٦)]، يقول العلامة أبو السعود في تفسيره: " شبهت مقدوراته Y الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة في كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كمال افتقارهم إليها ورغبتهم فيها، وكونها مهيأة متأتية لإيجاده وتكوينه متى تعلقت الإرادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الأموال المخزونة في الخزائن السلطانية، فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية"[(٧)]. ويجوز أن تكون من الاستعارة التمثيلية، وهي "أن تشبه صورة بصورة لما بينهما

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، ط١، (قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر)، مطبعة المدني ، القاهرة، ١٩٩١، ص١٣٩، ص٢٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٩.
(٣) فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص ، سلسلة عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، العدد ١٦٤، أغسطس١٩٩٢، ص١٤٩.
(٤) قوقزة، نواف، نظرية التشكيل الاستعاري في البلاغة والنقد، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٢، ص٢١٤.
(٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٣، ص٣٠١
(٦) عباس، فضل، البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع، ص١٧٩.
(٧) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٣، ص٣٠١.

من صلة من حيث المعنى، ثم تحذف الصورة الأولى ـ المشبه ـ ويبقى المشبه به"[١]. وعليه، فـ "الخزائن تمثيل لصلوحية القدرة الإلهية لتكوين الأشياء النافعة. شبهت هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريقة التمثيلية المكنية، ورمز إلى المشبه بها بما هو من لوازمها وهو الخزائن"[٢].

ونلحظ في هذه الاستعارة معنى التجسيم على وجه التمثيل، وهو "من قبيل تشبيه الأمر المعنوي المجرد بأمر محسوس مجسم، وذلك كثير الوقوع في التصوير القرآني، ومنه كل التشبيهات الفنية القرآنية التي جيء بها لإحالة المعاني والحالات صورا وهيئات"[٣]. فقدرة الله Y هنا ـ وهي صفة معنوية ـ معروضة في صورة حسية فنية مجسمة، فقد تحولت إلى خزائن مثقلة بالخيرات والعطايا.

ونحو ذلك، قوله Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}). والكتاب: هو قدر الله Y، فلا يتقدم أو يتأخر. وجسم هذا المعنى بالكتاب؛ لأنه لا يقبل الزيادة والنقصان. ونشير إلى أن "طريقة (التجسيم) هي الأسلوب المفضل في تصوير القرآن، مع الاحتراس والتنبيه إلى خطورة (التجسيم) في الأوهام"[٤].

وترسم الاستعارة الصورة بالتشخيص، وهو"إحياء المواد الحسية الجامدة وإكسابها إنسانية الإنسان وأفعاله"[٥]. يقول Y عن مدينة لوط المدمرة: (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ{٧٦}). والمقيم: أصله الإنسان المستقر في مكانه لا يرتحل. فهو هنا قد استعير لآثار المدينة الباقية ـ وهي جماد ـ في المكان، تشبيها بالشخص المقيم.

ومن بلاغة التصوير بالاستعارة ما ورد في قوله Y: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧} لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨}). فنجد التعبير القرآني يؤثر الاستعارة المكنية للتأكيد في قوله Y: (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) دون (لا تطمح) أو (لا تتمن) أو (لا ترغب)؛ إذ بالاستعارة يتأكد للنبي ε أن ما آتاه الله

---

(١) عباس، البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع، ص١٩٤.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٣٦.
(٣) الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، ص١٩٠.
(٤) قطب، التصوير الفني في القرآن، ص٧٢.
(٥) الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ط٢، عمان، دار الفارس، ١٩٩٩، ص٢١٠.

Y من السبع المثاني والقرآن العظيم أعظم من كل ما تلح النفس في رغبته من الدنيا. فـ "الاستعارة القرآنية أسلوب من أساليب البلاغة يستخدم للتأكيد في وصف حال أو موقف"([1]).

ونتلمس فنية الاستعارة، في قوله Y: (اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ). فخفض الجناح تمثيل للرفق ولين الجانب بحال الطائر إذا أراد أن يحنو على صغاره، أو أراد أن ينحط للوقوع خفض جناحه يريد الدنو. و(الجناح) تخييل وتجسيم، فكأنما للنبي ε جناح مجسم نتخيل حركته وهو ينخفض رحمة بالمؤمنين. وضمن هذا التمثيل والتخييل والتجسيم حُذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن صور الاستعارة (الصَّدع) في قوله Y: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤}). وهنا شبَّه تبليغ الدعوة الإسلامية بالصَّدع، بجامع المشقة في كل، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، ثم اشتق من (الصَّدع) فعل الأمر (اصْدَعْ) على سبيل الاستعارة التبعية. فإذا أضفنا إلى هذه الاستعارات ما ذكرناه عن لفظ (اصْدَعْ) من دلالات معناه، وإيحائية أجراسه، وبلاغة الحذف فيه؛ لاستشعرنا عظم الرسالة والمسؤولية الملقاة على عاتق النبيε وأتباعه، وما ينبغي أن يقوموا به من جهد لتكسير الحواجز، وتنقيب الأسوار التي تحول بين الإسلام وبين قلوب أولئك المعاندين.

وتظهر أبعاد الصورة الاستعارية في تصوير الحالات النفسية، مثاله ما ورد في قوله Y: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧}). وهنا تنقل الاستعارة المكنية حالة النبيε النفسية بطريقة التصوير المعجزة؛ لتفصح عن الحرج الشديد الذي يلاقيهε من استهزاء المشركين. فها هو شعور النبيε يتحول في التصوير القرآني الحي إلى حركة مادية مجسمة متحركة، حركة جثمانية منظورة محسوسة، وكأنما صدره ε وعاء يضيق على ما فيه ولا يتسع، فيضغطه ويكرب أنفاسه ε.

---

(١) عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص٣٤٤.

٣. التصوير بالكناية.

تُعدُّ الكناية شكلا من أشكال التعبير بالتلميح الذي يجمع بين الحقيقة والمجاز، فالكناية: " كل لفظ دل على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز"(١). والمعول في الكناية أن تعبر عن المعنى بغير لفظه، فهي تتعلق بالمعاني وليس الألفاظ، إذ "لا يكنى باللفظ عن اللفظ ، وإنما يكنى بالمعنى عن المعنى"(٢).

ومن فنية التصوير بالكناية أن "يحس السامع معه جمالا، ويجد للتعبير ما لا يجده للتعبير الصريح؛ وذلك لأن الكناية تعرض المعنى مصورا بصورة محسوسة فيزداد تعريفا ووضوحا"(٣). ومن هذا كلمة (موزون) في قوله Y: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩}). فالظاهر منها أن يقال: المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة والزرع وغيرها. لكن المعنى أشمل وأدق، إذ (الموزون) كناية عن صفة الحسن والتناسب، فصوَّر التعبير القرآني المعنى الذهني وهو الحكمة والاعتدال في كل ما أوجده الله Y بصورة حسية وهي الميزان الذي تنضبط به المقادير وتعتدل. "فقوله: (وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) أي متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة"(٤).

ومن أسرار بلاغة الكناية " أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيها برهانها"(٥)، نحو كلمة (الرجيم) في قوله Y: (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤}). تصور الآية خطاب الله Y إبليس على سبيل الكناية؛ فقد كنى التعبير القرآني عن حقارة إبليس وخبث جبلته بـ(الرَّجم) الذي هو في الحقيقة برهان على الذُّل والصغار؛ لأن العرب كانوا إذا احتقروا أحدا رموه بالحجارة، نحو رجمهم قبر أبي رِغال الذي كان دليل جيش الحبشة إلى مكة المكرمة. ومنه قال جرير:

إذا ماتَ الفرزدقُ فارجُموهُ   كما تَرمُونَ قبرَ أبي رِغالِ(٦)

(١) ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري(ت ٦٣٧هـ/١٢٤٩م)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، (تحقيق كامل محمد عويضة)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج٢، ص١٧٢.
(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣٤٠.
(٣) لاشين، عبد الفتاح، البيان في ضوء أساليب القرآن، ط١، دار المعارف، مصر، ١٩٨٤، ص٢٨٤.
(٤) الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٧٢.
(٥)الجارم، علي، وأمين، مصطفى، البلاغة الواضحة، ط١، دار النعمان، دمشق، ١٩٩٧، ص١٣١.
(٦) انظر: ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل(ت ٧٧٤هـ/١٣٨٦م)، السيرة النبوية، (تحقيق مصطفى عبد الواحد)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج١، ص٣٢.

ومن بدائع الكنايات ما ورد في قوله Y: (فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{٦١} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٦٢} قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣} وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{٦٤}). تصور الآيات خوف لوط ـ عليه السلام ـ أن يهجم قومه الخبث على ضيوفه وهم الشبان حسان الوجوه، ثم لا يستطيع حمايتهم؛ وقد كنى ـ عليه السلام ـ عن ذلك الخوف وقلة الحيلة، تأدبا منه وإجلالا لهم، فقال للملائكة : (مُّنكَرُونَ) أي "إنكم منكرون أن تجيئوا إلى هذه القرية وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون"[١]. وليس المراد من قوله (مُّنكَرُونَ) حقيقة اللفظ وهو إخبارهم أنه لا يعرفهم، فهذا ما يدركونه جميعا. وقد صرَّح التعبير القرآني عن هذه الحالة النفسية للوط ـ عليه السلام ـ في قوله Y على لسان لوط ـ عليه السلام ـ يدفع قومه عنهم: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)(هود:٨٠) وقوله Y: (قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ{٦٨})(الحجر:٦٨). وقد فهم الملائكة مراده، فأجابوه باستحالة تمكن القوم منهم، وقد كنوا عن حقيقتهم بقولهم: (بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣} وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{٦٤}). ولم يقولوا: نحن ملائكة العذاب، خلافا لما جاء في سورة (هود) حيث التصريح (قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ....)(هود:٨١). وذلك جريا على ما ابتدأه لوط ـ عليه السلام ـ من الكناية، وليتضمن الكلام معنى طمأنة نفس لوط ـ عليه السلام ـ بتحقق هلاك هؤلاء القوم الذين كنت تتوعدهم بالعذاب، فيمترون ويكذبون.

ومن التصوير بالكناية ما جاء في قوله Y: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ{٦٥} وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ{٦٦}). في السياق ـ وهو خطاب الملائكة لوطا ـ كنايتان تستوقفان الدارس، الأولى، قوله: (وَلاَ يَلْتَفِتْ). فقد يكون النهي على حقيقته؛ "لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم"[٢]. ولكن للنهي على سبيل الكناية دلالته الخاصة في هذه الحالة المهولة المحذورة، إذ تفصح الكناية عن شدة العذاب الذي سيحلُّ بالقوم الكافرين، ولذا "جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير، وترك التواني والتوقف"[٣]. والثانية، قوله: (مَقْطُوعٌ) يعني دابر قوم لوط ـ عليه السلام ـ ، "وقطع الدابر كناية عن ذهاب الجميع لأن المستأصل يبدأ بما يليه ويذهب يستأصل إلى أن يبلغ آخره وهو دابره"[٤]، وفي هذا صورة جلية للهلاك والدمار.

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢١٤٨.
(٢) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٤٦.
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٠، ص١٣٠.

٤. التصوير بالحوار.

قد يرسم التعبير القرآني مشهدا كاملا بالحوار، يقول Y: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢} قَالَ لَمْ أَكُن لأسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣} قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٣٧} إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٣٨} قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢}). يقول العلامة ابن عاشور وقد تلمح التصوير بالحوار في الآيات: "واعلم أن هذه الأقوال التي صدرت من الشيطان لدى الحضرة القدسية هي انكشاف لجبلة التطور الذي تكيفت به نفس إبليس من حين أبى من السجود وكيف تولد كل فصل من ذلك التطور عما قبله حتى تقومت الماهية الشيطانية بمقوماتها كاملة عندما صدر منه قوله: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠}). فكلما حدث في جبلته فصل من تلك الماهية صدر منه قول عليه، فهو شبيه بنطق الجوارح بالشهادة على أهل الضلالة يوم الحساب.

وأما الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان، فمظهر للأوامر التكوينية التي قدرها الله Y في علمه لتطور أطوار إبليس المقومة لماهية الشيطنة، وللألطاف التي قدرها الله لمن يعتصم بها من عباده لمقاومة سلطان الشيطان. وليست تلك الأقوال كلها بمناظرة بين الله Y وأحد مخلوقاته ولا بغلبة من الشيطان لخالقه؛ فإن ضعفه تجاه عزة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك"(١).

٥. التخييل الحسِّي.

والتخييل الحسِّي: هو أن "القرآن يعبِّر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني.... وعن النموذج الإنساني...."(٢). ومن هذه المعاني الذهنية، والنماذج الإنسانية التي يصورها التعبير القرآني قوله Y: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{١٥}). فالمعنى الذهني المجرد هنا: إصرار المشركين على كفرهم وإن قامت عليهم الحجج الباهرات. وهذا نموذج للكافرين يشخص حالة عنادهم السخيف،

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٥٤.
(٢) انظر: قطب، التصوير الفني في القرآن، ص٧١.

ومكابرتهم المرذولة. "ويكفي تصورهم يصعدون في السماء من باب يفتح لهم فيها. يصعدون بأجسامهم، ويرون الباب المفتوح أمامهم، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها، ثم هم بعد ذلك يكابرون فيقولون: لا.. لا.. ليست هذه حقيقة، إنما أحد سكَّر أبصارنا وخدَّرها فهي لا ترى إنما تتخيل"([1]).

٦. الصور البصرية (الحسية).

تنبه نقدنا القديم إلى ضرورة الملاءمة بين المعاني والأعضاء الحسية التي ندرك بها هذه المعاني، يقول ابن طباطبا: "إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له، إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه، وبموافقة لا مضادّة معها، فالعين تألف المرأى الحسن وتقذى بالمرأى القبيح الكريه، والأنف يقبل المشمّ الطيّب ويتأذى بالمنتن الخبيث، والفم يلتذ بالمذاق الحلو ويمج البشع المر، والأذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالجهير الهائل، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم وتتأذى بالخشن المؤذي، والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق ... ويستوحش من الكلام الجائر والخطأ الباطل " [2] .

وهذا عينه ما توقف عنده النقد الحديث، يقول جابر عصفور: " إن هناك أنماطاً متعددة من الصور في الشعر، فهناك النمط البصري، والسمعي، والذوقي، والشمّي، واللمسي، والعضوي، والحركي. بل إن كل واحد من هذه الأنماط ينقسم إلى أنواع أخرى متعددة، فالنمط البصري مثلاً يمكن أن ينقسم تبعاً لدرجاته اللونية أو درجات الوضوح. ويقال كذلك: إن الشعراء يختلفون فيما بينهم من حيث قدراتهم على التخيل، مما يؤدي ببعضهم إلى الإلحاح على نمط من أنماط الصورة "[3] .

ونجد هذا في مشهد طبيعي يعرضه التعبير القرآني بطريقة التصوير الفني، يقول Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦} وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨}). تبرز في هذا المشهد الكوني عناصر الصور البصرية[4]، وهي متداخلة متناسقة. فالعنصر اللوني والضوئي يصوران السماء في الليلة الحالكة وقد تجلت فيها الكواكب، والنجوم تتشعشع بأضوائها الرائعة، مع ما يخترق صفوها من

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٢٩.
(٢) ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي(ت ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤م) عيار الشعر، (تحقيق : طه الحاجري ومحمد زغلول سلام)، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦، ص١٤.
(٣) جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، ص٣١٠.
(٤) انظر: الرباعي ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، ص١٨٦-١٩٠.

شهب تضيء هنا وهناك. والعنصر الحركي "يرسم البرج الثابت، والشيطان الصاعد، والشهاب المنقض"(١). وهذا من بدائع التصوير في السورة. ومن الصور البصرية التي تكرر ظهورها في السورة مع مشاهد الهلاك ما ورد في قوله Y:

(وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ{٦٦}).

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ{٧٣}).

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{٨٣}).

وهنا يشكل التصوير عنصر (مفاجأة)؛ إذ للصباح والشروق خصوصيتهما في بعث الأمل والحياة، لا العذاب والعقاب كما تصور الآيات.

٧. التصوير في مشاهد القيامة.

يستخدم القرآن الكريم طريقة التصوير في عرض مشاهد القيامة؛ لأنها أشد إيحاء، وأكثر تأثيرا من التعبير الذهني المجرد. والتعبير القرآني يهدف ـ بذلك ـ إلى أن تكون هذه المشاهد حية في ذهن المؤمن ووجدانه، فيبقى معلقا بين الرجاء والخوف. فالقرآن الكريم يتناول " الآخرة في معان وصور مرسومة شاخصة للعين، ولم يتناولها فكرة مجردة؛ لتظل ماثلة في الأذهان"(٢).

يقول Y: (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٣} لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ{٤٤} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥} ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ{٤٦} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧} لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ{٤٨}). وهذان مشهدان قصيران للعذاب في النار، والنعيم في الجنة؛ إذ " يقصر العرض في مواقف الرهبة والجلال، أو الحسم والفصل"(٣). وقد حُسِم الصراع بين إبليس وجنوده الغاوين من جهة والمتقين من جهة أخرى. فريق في الجنة، وفريق في الجحيم.

أما جهنم، فهي موعد الغاوين، "والموعد: مكان الوعد. وأطلق هنا على المصير إلى الله Y، استعير الموعد لمكان اللقاء تشبيها له بالمكان المعين بين الناس للقاء وهو الوعد. ووجه الشبه تحقق المجيء بجامع الحرص عليه شأن المواعيد؛ لأن إخلاف الوعد محذور، وفي ذلك تلميح بهم لأنهم ينكرون البعث والجزاء، فجعلوا بمنزلة من عين ذلك المكان للإتيان"(٤).

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٣٣.
(٢) عامر، فتحي، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥، ص١٢٤.
(٣) قطب، سيد، مشاهد القيامة في القرآن، دار المعارف، مصر، ١٩٦١، ص٤٣.
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٥٣.

ثم يصور القرآن الكريم عظم حجمها بأن (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ)، "والظاهر أن السبعة مستعملة في التكثير"(١)، فهي لا تضييق على داخليها وإن كثروا، وذلك نحو قوله Y: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ)(ق:٣٠).

وأما الجنة، فيصور التعبير القرآني في ذكر نِعَمها - مع الإيجاز- شرائط الثواب الأربعة: "وهي: ١. أن تكون منافع، فقوله Y: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ). ٢. مقرونة بالتعظيم، فقوله Y: (ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ)، والله Y إذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم والإجلال. ٣. خالصة عن شوائب الضرر، الروحية كالحقد والغل أو الجسمانية كالإعياء والتعب، فقوله Y: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧} لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ..). ٣. دائمة، فقوله Y: (وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ)"(٢).

ومن فنية التصوير في المشهدين المقابلة التصويرية. يقول سيد قطب: فـ" العيون في الجنات تقابل في المشهد تلك الأبواب في جهنم، وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين في مقابل الخوف والفزع هناك. والمقابلة بين المتقين (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ)، في مقابل الحقد الذي يغلي به صدر إبليس وجنوده. والمقابلة بين حال المؤمنين في الدنيا وحالهم في الآخرة، فلا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجا جزاء ما خافوا في الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن في جوار الله الكريم"(٣).

ثالثا: التناسق الفني في السورة.

يعد التناسق الفني من المطالب الأساسية في العمل الأدبي، إذ يزيل عنه الفوضى والتشتت، فتوصل فيه المقدمات إلى النتائج، ويرتبط أوله بآخره، وتتم عملية التواصل مع الفكر التي يتناولها النص مهما تعددت فيه الأساليب، وتنوعت وسائل العرض،فـ "النص الأدبي يعتمد اعتمادا كبيرا على السياق الجيد وحسن اطراده، وترابط الجمل، وما بينها من علاقات التضام والاقتران مع انتقاء التنظيم الملائم للموقف الذي يدور حوله النص"(٤). مما يجعل قبوله وتذوقه ممكنا. والتناسق الفني"هو الذي يشكل طبيعة الكل، ويجعل من الصورة الكلية وعلاقاتها الداخلية

(١) المصدر نفسه، ج١٤، ص٥٣.
(٢) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص١٩٣،١٩٤.
(٣) انظر: قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٤٢.
(٤) خليل، إبراهيم، النص الأدبي تحليله وبناؤه، دار الكرمل، عمان، ١٩٩٤، ص١٨.

لوحة واحدة لا مكان فيها للتجزئة إلى عناصر، كأنها الوحدة العضوية التي تجمع أجزاء الكائن الحي"[١].

والبحث عن الروابط المشتركة في سورة (الحِجر) يتوجه بنا في اتجاهين :

١. تناسق اسم السورة مع مضمونها.

سميت السورة بـ (الحِجر)؛ لاشتمالها على قصة أصحاب الحِجر، وهم قوم صالح عليه السلام. ولم ترد هذه التسمية لهم إلا في هذه السورة حسب، قال Y: (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجرِ الْمُرْسَلِينَ{٨٠}). وهذا لا ينفي أن يكون بين اسم السورة ومضمونها تناسقا فنيا ينكشف بعد التأمل والتدبر.

فمن معاني (الحِجر) الحِفظ، يقال: "نشأ فلان في حَجر فلان وحِجره أي حِفظه"[٢]. ولعل الدلالة الإجمالية لهذه التسمية في سورة (الحِجر) هي أن الله Y هو الحافظ لكل شيء، وأن الأسباب المادية لا تحفظ شيئا، وهذا ما تؤكده الآيات على طول السورة.

فتتجلى صور **حفظ الله Y القرآن والدين والدعوة** في قوله Y: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). وهذه آية خاصة في سورة (الحِجر) لم تأت في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع حسب. و**حفظ الله Y الكون** في أبرز مظاهره، وهي السماء، يقول Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦} وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨}). و**حفظ الله Y أرزاق العباد** في قوله Y:(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١})، و**حفظ الله Y عباده المؤمنين** من إبليس وجنوده أن يضلوهم، يقول Y: (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢}). **وحفظ الله Y رسولهε** من المشركين وأذاهم، يقول Y: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥}).

وفي وسط هذه الصور ـ التي تؤكد أن لا حافظ في الوجود إلا الله Y ـ تبرز صورة أصحاب (الحِجر) الذين ظنوا أن بيوتهم المنحوتة في الصخر ـ وهي سبب مادي ـ تحفظهم من عذاب الله Y وبطشه؛ لإيقاظ السامع واسترعاء انتباهه، ولتظهر المقابلة بين الصورتين، يقول Y: (وَلَقَدْ

(١) أبو علي، محمد بركات، في الأدب والبيان، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤، ص١١٧.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٣٠.

كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجر الْمُرْسَلِينَ{٨٠} وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٨١} وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{٨٣} فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٤}).

ومن معاني (الحِجر) في اللغة: "المنع"(١). وقد مدّ هذا المعنى ظلاله على آيات السورة مدا، وللتدليل على هذا، سأتوقف بالدراسة والتأمل عند مشاهد السورة في مفتتحها ومختتمها. يقول Y: (الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١} رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢} ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣} وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥} وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦} لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧} مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨} إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). افتتحَ اللهُ هذه السورة بالحروف المقطعة (ألف، لام، را) التي يُحجَرُ بها على عقول المعاندين المكذبين؛ **فيمنعهم** العجزُ عن معارضة كتاب الله ومشابهته رغم تأليفه من هذه الحروف التي بها يتكلمون، ومع ذلك لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وكذلك وَصَفَ التعبيرُ القرآنَ بأنه (مُّبِينٍ)، وهذا صريح في أن من تبع القرآنَ واهتدى به، فإنه **يمنعه** من الضلالة والحيرة، أو أن تشتبه عليه الأمور بفضل هذه الإبانة والإيضاح التي تلازم كتاب الله Y. ثم تبين الآيات أسباب **منعِ** التسليم والإيمان بالقرآن الكريم؛ فـ(الأمل واللهو واللعب) هي جِماعُ أسباب الغفلة وغياب الوعي. وتذكّر أن من عدل الله Y وحكمته أن **يمنعَ** عقوبتهُ ومؤاخذتهُ وإهلاكهُ عن هؤلاء المشركين الغافلين حتى يستكملوا آجالهم (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥}). ثم توضح أنَّ انهزام المشركين وعجزهم أمام بلاغة القرآن الكريم وفصاحته هو ما **منعهمُ** من الإذعان للحق، بل وإلى إساءة الأدب في خطاب رسول اللهε بأسلوبٍ غايةٍ في الوقاحة، وعدم الحياء،(وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ {٦} لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧}). فترد عليهم الآيات قولهم، وتهددهم **امتناع** إمهالِ الله Y لهم إن نزلت عليهم الملائكةُ بالعذاب (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨}). وأخيرا يقفل المشهد بالتأكيد على أن الله Y **مانع** كل يد تسعى إلى تحريف القرآن وتغييره، (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (حجر)، ج٢، ص٢٩.

وفي ختام السورة، يقول Y: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧} لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩} كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١} فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣} فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{٩٩}). يبدأ السرد بتوجيه الله Y رسوله وكل مستمسك بالقرآن مؤمن به أن **يمتنع** عن النظر إلى الدنيا وأهلها، أو أن يتصور غيره قد أوتي خيرا منه؛ فيجهل حقيقة القرآن الكريم، فلا يقدر نعمة الله Y حقَّ قدرها، (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧} لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨}). ثم تكشف الآيات هؤلاء الذين **امتنعوا** عن الإيمان وتتابعوا على الكفر والتكذيب، مع ما جاءهم من النذر البينة،(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩} كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١} فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣}). لكنها تأمر الرسول بألا **يمتنع** عن الدعوة أو يتوانى في تبليغها، بل عليه الجهر بها وتحمل المشاق في سبيلها، (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤}). وهي تطمئنه أن الله Y **مانع** عنه أذى المشركين، وحاميه من مكرهم واستهزائهم، (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦}). وهي كذلك ترشده إلى أن التسبيح والصلاة أعظم ما **يمنع** الضيق والكآبة والحزن، (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨}). ويقفل المشهد **بمنع** الانقطاع عن العبادة والدعوة إلى الله Y حتى يأتي أمر الله Y بالنصر أو الموت. (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{٩٩}).

٢. تناسق عقد المعاني في سورة (الحِجر).

والمراد ـ هنا ـ عرض السورة عرضا واحدا ترسم به خط سيرها إلى غايتها، وتبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها؛ ليتضح في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى. فـ "السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية

الواحدة"(١). فإذا " كان النظر الأسلوبي في النص قد يحدث الانطباع - لأول وهلة - بأنه يسعى سعيا واضحا لتفكيكه، إلا أنه تجنبا لهذا الانطباع، يقوم بدراسة قواعد الربط التي تنظم ما هو متفكك في بنية متماسكة. ويكشف عن العناصر التي تتيح للنص أن يفصح عن ترابطه الداخلي، وانسجام أجزائه وتلاحمها، وتفاعل المتقدم فيه مع المتواليات النصية، شارحا نفسه بنفسه، معبرا عن وحدته وتكامله"٢. وسورة (الحِجر) تتألف من مقدمة، وثلاثة مقاصد، وخاتمة، جاءت على هذا الترتيب:

المقدمة: وفيها التنويه بفضل القرآن وهديه، وإبراز صفات منكريه، وتوعدهم.

المقصد الأول: وفيه التدليل على وحدانية الله Y وقدرته، حتى تقام الحجة على الكافرين، (السماء، الأرض، الرياح، الحياة، والموت، والحشر، والخلق...)

المقصد الثاني: وفيه قصة البشرية الكبرى.

المقصد الثالث: وفيه تتجلى مظاهر رحمة الله Y وعذابه، بسرد قصص الأنبياء مع أقوامهم سردا يعمق المقصدين الأول والثاني.

الخاتمة: خلاصة تؤكد المقاصد كافة.

المقدمة (١ - ١٥).

قال Y: (الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١} رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢} ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣} وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥} وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦} لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧} مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨} إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{١٢} لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣} وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{١٥}).

بدأت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة (ألف لام را)، "وتقديمها بين يدي الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها من شأنه أن يوقظ الأسماع ويوجه القلوب لما يلي هذا الأسلوب

(١) الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى(ت ٧٩٠هـ / ١٠٤٢م)، الموافقات في أصول الأحكام، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٩، ج٣، ص٢٧٨،٢٧٩.
(٢) خليل، الضفيرة واللهب، ص٨٩.

الغريب"[1]. وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة بيان أن ما في القرآن الكريم من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه عاقل (وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ)، وكل من تردد فسيندم ـ ولات حين مندم ـ، وهذا حال (الَّذِينَ كَفَرُواْ)؛ إذ تلبسوا بصفات الأنعام التي لا قلب لها ولا فكر(يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ). ومع البدء يبرز الوعيد الذي سيلقي بظلاله المهولة على السورة كلها؛ لعلهم يرعون. (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). ثم يذكر التعبير القرآني لهم سبب إرجاء العذاب عنهم، فهو موقوت بأجل معلوم (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤}). وهذا استمرار في الوعيد والتهديد بالتعريض المؤيد بهلاك نظرائهم من المكذبين السالفين. فيمزج الحديثين مزجا عجيبا يدع أدق الناس فطنة لتصريف وجوه القول لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال.

ويكتمل تناسق المشهد بتصوير حال المشركين وقد توغلوا في الكفر والتكذيب، مثل توغلهم في الملذات والآمال، حتى باتوا بلا أدب أو حياء. (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}). وإنما وصفوهε بالجنون؛ لإخفاء العجز الذي تلفعت به عقولهم أمام بيان القرآن وبلاغته(وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ). ثم يصور التعبير ـ مع وقاحتهم وعجزهم ـ جهلهم؛ إذ قالوا: (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧}). فهم بطلبهم نزول الملائكة أرادوا تحدي النبيε، والاعتذار عن كفرهم باعتبار أنه مجنون يخالف قوله فعله. والحق أن قولهم هذا يصور جهلهم وجدارتهم بصفات الأنعام؛ إذ أعرضوا عما في القرآن من إعجاز. ثم هم بذلك يحطون من قدر إنسانيتهم التي جعل الله النبوة فيها إكراما لهذا الكائن الإنساني، وكذلك يستعجلون هلاكهم.

فيأتي رد القرآن سريعا على تلك القحة، وذلك العجز، وهذا الجهل بالحقيقة التي تؤكدها عاقبة السالفين: أن الملائكة لا تنزل على الرسل إلا لعذاب المكذبين من أقوامهم حين ينقضي أجلهم المعلوم، (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨}). وبعد أن عجل كشف شبهتهم قرر إنزال الذكر على الرسولε، تعزية له مما يسمعه منهم، ومجاراة لظاهر قولهم، والمقصود الرد عليهم في استهزائهم. فـ" جاء نشر الجوابين على عكس لف المقالين، اهتماما بالابتداء برد المقال الثاني بما فيه من الشبهة بالتعجيز والإفحام، ثم ثني العنان إلى رد تعريضهم بالاستهزاء وسؤال رؤية الملائكة. فقرر إنزال الذكر، ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم بأن مُنزِّل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء"[2]. (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). وثمة صورتان متقابلتان للنزول: الأولى، نزول الملائكة، وهذا ما أراده المشركون بجهلهم، ولو كان لهلكوا؛ لأن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق، والحق عند التكذيب الهلاك. والثانية، نزول الذكر، وهذا ما أراده الله Y

(١) دراز، النبأ العظيم، ص١٦٤.
(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٢٠،٢١.

رحمة بهم، "فخير لهم أن يقبلوا عليه، فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل، ولا يلتبس بالباطل، ولا يمسه التحريف، وهو يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه، إن كانوا يريدون الحق"(١).

ثم يضم التعبير إلى المشركين أسلافهم المشتركين معهم في التجافي عن الهدى والاستهزاء به، (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{١٢} لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣}). وفي هذا التمثيل بشركائهم تتأكد جملة المعاني السابقة؛ فيه يتحقق كفرهم، وفيه تعريض بما قد يصيبهم من العذاب الذي أصاب أمثالهم. وفيه تسلية للرسولε أنك لست بدعا من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والتكذيب، فهكذا المكذبون في عنادهم القبيح.

وتقفل المقدمة بقوله Y: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{١٥})؛ ليرسم السياق صورة تكشف عن مكابرة المشركين المرذولة، وتبطل جميع معاذيرهم من قولهم: (إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ). وقولهم: (لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ). ليتضح أنهم لا يطلبون الدلائل على صدق النبيε، لأن دلائل الصدق بينة، وأشدها بيانا القرآن (وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ). ولكنهم يختلقون المعاذير المزيفة.

وهنا تمت المقدمة بعد أن بينت المعجزة الخالدة (القرآن الكريم)، وذكرت سنة الله Y التي لا تتخلف في هلاك القوم الكافرين متى جاء أجلهم. وأخيرا كشفت عن العلة الحقيقة للتكذيب، وهي العناد الأصيل لا نقص الدليل، بما يوطئ ويمهد لبيان المقصد الأول في السورة وهو ذكر دلائل وحدانية الله Y.

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٢٧.

المقصد الأول: دلائل وحدانية الله Y (١٦ ـ ٢٥).

قال Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦} وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨} وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١} وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢} وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ{٢٣} وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤} وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}).

لما انتهت المقدمة بمشهد مكابرة المشركين وكان ميدانه السماء، تخلص السياق إلى معرض دلائل الوحدانية تخلصا بديعا؛ فبدأه بمشهد السماء التي تشهد بروجها المزينة، وحفظ الله Y لها من دنس الشياطين ورجسهم، بالوحدانية والإعجاز أكثر مما تشهد خوارق العادات من نزول الملائكة منها، أو عروج المشركين إليها.

ثم ينتقل التعبير من الاستدلال بالآيات السماوية إلى الاستدلال بالآيات الأرضية(مدّ الأرض، الجبال الراسيات، النبت الموزون، المعايش التي فيها)؛ لمناسبة المقابلة. وبعدها إلى الاستدلال بظواهر كرة الهواء الواقعة بين السماء والأرض؛ للاستدلال بفعل الرياح والمنة بما فيها من فوائد؛ فالرياح تحمل الماء في الغيوم، ثم تسقطه لينتفع العباد.

وتجتمع في هذا المشهد المصور الشاخص مناظر الطبيعة القاطعة بوحدانية الله Y وقدرته، وهي متداخلة متناسقة في الصورة والظل والإيقاع. يقول سيد قطب: " ونلحظ في التعبير أنه يرد كل حركة إلى الله Y حتى شرب الماء..(فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ).. وذلك لتنسيق الجو كله، ورجع الأمر كله إلى الله حتى في حركة تناول الماء للشراب؛ لأن الجو جو تعليق كل شيء في هذا الكون بإرادة الله المباشرة. وسنة الله Y هنا في حركة الأفلاك كسنته هناك في حركات الأنفس، تضمن المقطع الأول (المقدمة) سنته في المكذبين، وتضمن المقطع الثاني (المقصد الأول) سنته في السماوات والأرضين، وفي الرياح والماء والاستقاء"(١).

---

(١) انظر: قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٣٥.

ولما ذكر البيان القرآني إنزال المطر الذي يحيي الأرض ناسب أن يذكر بعده جنس الإحياء كله(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي)؛ وفيه استدلال على الغافلين عن الوحدانية. وذكر الموت (نُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)؛ للمقابلة والتكميل، ولأن بالصورتين (الحياة والموت) دليل على إمكان البعث الذي سيستدل به(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ). وذلك أن ذكر الحياة والموت يستدعي تذكر الأحياء الباقين والأموات الماضيين، (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤} وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}). فـ "تخلص من الاستدلال بالإحياء والإماتة على عظم القدرة إلى الاستدلال بلازم ذلك على عظم الله وهو علمه بالأمم البائدة والأمم الحاضرة"[١]. فأتمَّ السياق رجع كل شيء إلى الله Y.(الحياة والموت، والأحياء والموت، والبعث والنشور).

وهنا يتناسق هذا المشهد مع ما أطلت به المقدمة من قوله Y: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥}). فهنا التقرير بأن الحياة والموت بيد الله Y، وأنه ـ وحده ـ الوارث بعد الحياة، وأنه يعلم الذين كُتِبَ عليهم الاستقدام فماتوا، والذين كتب عليهم التأجيل فتأخروا في الوفاة. وكل سيُحشَرُ إلى الله Y في النهاية، وإليه المآب.

ونلاحظ في المقدمة والمقصد الأول تناسقا في حركة المشهد، نزول الذكر، ثم نزول الملائكة، ثم نزول الرجوم للشياطين، ثم نزول الماء من السماء. وتناسقا في العناصر الطبيعية التي تحيط بالأحداث والمعاني في مجال الكون الكبير: السماء والبروج والشهب، والأرض والرواسي والنبات، والرياح والمطر.

المقصد الثاني: قصة البشرية الكبرى(٢٦ـ ٤٨).

قال Y: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦} وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{٢٧} وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩} فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠} إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣١} قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢} قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣} قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٣٧} إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٣٨} قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤، ص٤٠.

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢} وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٣} لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ{٤٤} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥} ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ{٤٦} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧} لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ{٤٨}).

يبدأ الكلام هنا بتكملة إقامة أدلة وحدانية الله Y بخلق جنس البشر(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ)، وجنس الجن (وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ)؛ ليتناسق مع ذكر الإحياء والإماتة في المقصد السابق. فإيجاد النوع الإنساني ـ وهو أهم الأحياء ـ دليل على عظيم القدرة والحكمة، وعلى إمكان البعث والحشر (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}).

وقبل أن يعرض السياق القرآني قصة (البشرية الكبرى) نجده يقدِّم لها بإشارات التمكين للإنسان في الأرض، وإلى استخلافه فيها. فقد سبقها قوله Y: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠}) لتبدو السورة وحدة متناسقة يظاهر بعضها بعضا.

ثم يفتتح القصة بذكر التركيبة التي خُلِقَ منها آدم، وهي الطين (مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) والروح (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي). تلك النفخة العلوية التي جعلته أهلا لسجود الملائكة له إعظاما وإجلالا. وبالمقابل يذكر المادة التي خلق منها إبليس وهي (مِن نَّارِ السَّمُومِ) حسب. وذكر هذه المقابلة تكشف عن أوصاف الحسد والمكابرة في نفسية إبليس، وقد عبر عنها القرآن الكريم بوضوح في صورة مناظرة بين إبليس وبين الله Y حيث أمره بالسجود فأجاب معللا رفضه: (قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) فنطقت طبيعة الحسد والمكابرة في ناره السموم بذكر الصّلصّال الطيني، ولم تذكر النفخة العلوية التي تلبست به. وهذا نحو قوله: (قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{١٢})(الأعراف:١٢). ولعل هذه المكابرة تعيدنا إلى المقدمة حيث المشركون وهم يكابرون؛ لتظل المعاني يفيء بعضها إلى بعض.

ثم تتابع المناظرة الكشف عن صفات إبليس، فتصور حبه للحياة وإن كانت حياة ذميمة حقيرة، وهذا ما تأباه النفوس المؤمنة الأبية، (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٣٧} إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٣٨}). ولعل حب هذه الحياة الذميمة يعود بنا إلى مطلع السورة حيث المشركون وهم يأكلون ويتمتعون كالأنعام.

وتصور عداوته للبشر، وتطلعه لغوايتهم بقلب الحقائق، فيحسّن القبيح، ويقبِّح الحسن، (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠}) وليس أدل على قلبه للحقائق من تزيينه للمشركين قولهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ). كما جاء في المقدمة.

ثم تنتهي المناظرة بالتأكيد على أن سنة الله Y حفظ أولياءه من مصائد الشيطان لا تتخلف أبدا، (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢}). وهي كذلك من قبل لا تتخلف مع المكذبين، ولا مع مظاهر دلائل وحدانية الله Y.

وذِكرُ هذه الحالات من أوصاف نفسية إبليس؛ لتنبعث في نفوس البشر كراهيته، فيأخذوا حذرهم منه، فينجوا من الهلاك معه في جهنم، (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٣} لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ{٤٤}). ثم ينتقل السياق من وعيد إبليس وأتباعه إلى بشارة المتقين تفننا في المقابلة، وإتماما لعناصر الصّورة، (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥} ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ{٤٦} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧} لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ{٤٨}).

المقصد الثالث: تجليات مظاهر رحمة الله Y وعذابه، (قصة إبراهيم، قصة لوط، قصة شعيب، قصة صالح عليهم السلام) (٤٩ ـ ٨٤).

قال Y: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩} وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{٥٠} وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْراَهِيمَ{٥١} إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ{٥٢} قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ{٥٣} قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ{٥٤} قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ{٥٥} قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ{٥٦} قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ{٥٧} قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠} فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{٦١} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٦٢} قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣} وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{٦٤} فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ{٦٥} وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ{٦٦} وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ{٦٧} قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ{٦٨} وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ{٦٩} قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ{٧٠} قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{٧١} لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ

يَعْمَهُونَ{٧٢} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ{٧٣} فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{٧٤} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥} وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ{٧٦} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ{٧٧} وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ{٧٨} فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ{٧٩} وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجرِ الْمُرْسَلِينَ{٨٠} وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٨١} وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{٨٣} فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{٨٤}).

يأتي هذا المقصد بقصصه بعد مقدمة: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩} وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{٥٠})، وهي المِعبَرة السرية التي ينزلق عليها الكلام وينصب انصبابا واحدا؛ لأن الكلام الأقرب إليها في المقصد السابق كان عن الجنة وأهلها فناسب الابتداء بالرحمة والمغفرة، ثم ثني العنان بذكر العذاب الأليم تناسقا مع ذكر جهنم وأهلها.

وبدء القصص بذكر المغفرة والعذاب براعة استهلال؛ إذ ما في القصص يجيء بعضه مصداقا لنبأ الرحمة، وبعضه مصداقا لنبأ العذاب. وقد ذكرت هذا في مباحث من الرسالة، فلا أعيد[١]. ونشير هنا إلى التناسق والتماسك بين مقاطع السورة، فهذا البدء يعيدنا إلى مطالع السورة؛ ليصدّق ما جاء فيها من نذير، (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥}). فهذه نماذج القرى الهالكة بعد النّذر، حلّ بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل. وكذلك يصدق هذا القصص ما ورد في مطالع السورة من شأن الملائكة الذين لا ينزلون إلا لأمر عظيم، كالعذاب والهلاك (مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨}).

ونتلمس هذا التناسق كذلك في جوانب من حوار الملائكة إبراهيم ـ عليه السلام ـ (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ{٥٧} قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠})

ونجد السياق يقدّم قصة لوط ـ عليه السلام ـ لأنها الأنسب لتناسق الظلال في السورة كلها، (فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{٦١} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٦٢} قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣} وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{٦٤}). وهنا برزت كلمة (الحق) على لسان الملائكة تنسيقا مع مطلع السورة حيث الكلام عن الملائكة الذين لا ينزلون إلا بـ (الحق). وهو يقدّم ـ كذلك ـ نزول الملائكة لهلاك قوم لوط، ويؤخّر حكاية قوم لوط وتآمرهم على ضيوفه؛ " لأن المقصود هنا ليس هو القصة بترتيبها الذي وقعت به، ولكن تصديق النذير، وأن الملائكة

---

(١) انظر: ص ٧٠ من هذه الرسالة.

حين ينزلون فإنما ينزلون للعذاب فلا ينظر القوم ولا يمهلون"(١). ثم يعطف على قصة لوط ـ عليه السلام ـ قصتا أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر؛ لأنهم مثل قوم لوط في إنذار المشركين من نزول الملائكة، ولأن أهل مكة يشاهدون ديار هذه الأمم الثلاث، (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)، (وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ).

وهكذا ينتهي المقصد الثالث، وقد حقق سنة الله Y في هلاك المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم، فتتناسق نهايته مع نهاية المقاطع الثلاثة السابقة في تحقيق سنة الله التي لا تتخلف، ولا ترد، ولا تحيد.

الخاتمة: عود على بدء.

قال Y: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{٨٥} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦} وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧} لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩} كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١} فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣} فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{٩٩}).

وهنا يعود سياق الكلام إلى حيث فارق مهيعه فيتعانق طرفا السورة، ويلتحم من قوسيهما سور محكم يحيط بها، فإذا هي بنية متناسقة محبوكة مسورة. وبيانه: أن السياق كان قد ابتدأ الكلام عن فضل القرآن، وإنذار المكذبين، وإقامة الدلائل على وحدانية الله Y ومنها خلق السماوات، ثم انتقل عندها إلى قصة البشرية الكبرى بالتذكير بما فيها من سنن وعبر، ثم إلى سوق قصص الأمم التي كذبت فحق عليها العذاب. فآن الأوان للعود إلى حيث افترق طريق النظم فذكر خلق السماوات ودلالته على وحدانية الله Y (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ) فجاءت على نسق قوله Y: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦}). وكذلك قوله Y: (وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ) على نسق قوله Y: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣})، فالآيتان تشعران بالإنذار والوعيد في الآخرة. وهي كذلك فذلكة على نسق قوله Y: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ{٢٣} وَلَقَدْ

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٤٧.

عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤} وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{٢٥}). فكل الخلق حاضرون ساعة البعث أمام الله Y للحساب. وقوله: (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) على نسق قوله Y: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ). وقوله Y: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧}) على نسق قوله Y: (الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١})، (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩}). وقوله Y: (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ) على نسق قوله Y: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ). وقوله Y: (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١}) فذلكة على نسق قوله Y: (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{١٢} لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣}). فهذه حال المكذبين في التواصي على إنكار الحق والاستهزاء به، والعبث فيه. وقوله Y: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣}) على نسق قوله Y: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣}) بجامع الإنذار والوعيد فيهما. وقوله Y: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤}) على نسق قوله Y: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ). وقوله Y: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦}) على نسق قوله Y: (وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦}) إذ قولهم هذا من الاستهزاء الذي تكفل الله Y كفايته رسول الله ε.

ونتلمس التناسق الفني في حسن تخلص التعبير من المقصد الثالث حيث الكلام عن الأمم المعذبة إلى الختام ببيان أن ما أصابهم هو من (الحق) الذي قامت عليه السماوات والأرض، وهو عدل (الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ) في خلقه (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ) فلا يجازيهم على أعمالهم إلا بما يناسبها. ثم ينتقل من الإنذار بالعذاب في الدنيا إلى الإنذار بعذاب الآخرة (وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ)؛ للإشارة إلى أنه لا يفلت من عذاب الله Y أحد، فإن لم يكن عذابه في الدنيا لحكمة يعلمها الله الخلاق، فإن الساعة موعده، والساعة أدهى وأمر. وأنه ما على النبيε إلا البلاغ والإنذار، فإن أعرضوا فليذرهم في غلوائهم وليصفح عنهم. (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ).

ثم يتصل معنى(الحق) بامتنان الله Y على نبيه ε أن آتاه الله Y القرآن العظيم (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧}) مما يفصح عن اتصال عميق بين هذا القرآن العظيم و(الحق) الذي قام الوجود به، وستقوم الساعة عليه."فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق، وهو يكشف سنن الخالق ويوجه القلوب إليها، ويكشف آياته في الأنفس والآفاق ويستجيش القلوب

لإدراكها، ويكشف أسباب الهدى والضلال، ومصير الحق والباطل"([1])، إنها (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ). وما يصرف المشركين عن اتباع هذا الحق الناصع إلا تمتعهم في حياتهم المذمومة (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ)، وهذا نحو قوله: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ). حتى استحقوا العذاب (وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)، وهذا نحو قوله: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) في أول السورة. ونلاحظ السياق هنا يتماهى في معناه مع ما أشارت إليه السورة في غرتها. ولما كان في النهي شدة القلب والغلظة على المشركين قابله البيان القرآني على عادته في التفنن آمرا النبي ε أن يرفق بالمؤمنين ويتلطف بهم، (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨}).

ويظل الإنذار يلفع جو السورة كله بتناسق محكم، فقوله Y: (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩}). جاء البيان بوصف النذارة دون البشارة، أي قل لهم يا محمد ε: ما عليَّ إلا إنذاركم؛ إذ كنتم تكذبون وتستهزئون، وتتمتعون كالأنعام (ذَرْهُمْ...). وهذه النذارة هي ما قالها لوط وشعيب وصالح ـ عليه السلام ـ لأقوامهم من قبل، فكذبوا بها، حتى نزل عليهم العذاب الأليم. وهذه النذارة بما تحمله من عذاب هي جزاء المكذبين في الدنيا والآخرة، وما على النبي إلا الجهر بدعوته والصبر عليها فقد حفظه الله Y وحفظها (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١} فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣} فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦}).

ويكون الختام بتوجيه النبيε أن يلوذ بالله Y الذي يعلم حاله وتحرجه من استهزاء الذين سيأتي يوم يودون فيه لو كانوا مسلمين، يوم لا يخزي الله Y النبيε والمؤمنين معه (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{٩٩}).

وتالله لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره حجج بيّنات، وفي أساليب ترتيبه منجزات، وفي نبوءاته الصادقة مبهرات، وفي تشريعاته الخالدة مكرمات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية برهانات ساطعات، فلعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات.

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص٢١٥٤.

الخاتمـــــــــة.

بعد أن تمَّ البحث بحمد الله Y وفضله، كان من أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث في دراسته للسورة بمستوياتها الأربعة ما يأتي:

المستوى الصوتي، وقد وظف التعبير القرآني فيه أصوات الجهر، والهمس، والتفخيم، والتفشي، والمد، وإيقاع الوحدات اللغوية المتكاملة توظيفا يقصد إلى تصوير المواقف وتشخيصها. وتبين أثر (النبر) في تغيير المعنى. ثم توظيف المقاطع الصوتية التي تبين بها القدرة على الكشف عن جوانب قد تخفى في النص؛ وذلك لسهولة التعامل معها إحصائيا برصد حالات التكرار فيها، ثم البحث عن دلالاتها المعنوية. فقد تكررت المقاطع القصيرة المفتوحة بما يشكل تميزا أسلوبيا للسورة. وأهمية الفاصلة القرآنية بأنواعها الأربعة (التوازي، الموزون، التطريف، الترسل) في أنها تمثل إيقاع البنية العامة للسورة.

والمستوى الدلالي، وقد تميزت فيه ألفاظ السورة بالدقة والانحراف الدلالي وإثارة الخيال بما فيها من تصوير، وتنوعها دون تناقضها. والكشف عن المعاني والدلالات التي أفادتها السورة من العلاقات الترابطية بين الألفاظ نحو الترادف، والمشترك اللفظي، والتضاد.

والمستوى الصرفي والنحوي، وفيه تميزت السورة بمعان أفادتها الصيغ الصرفية للأسماء والأفعال، وتميزت بتراكيب نحوية خاصة، وهي (ربَما يودُّ)، و(إلا ولها)، و(لوما)، وهي توضح التركيز حول المقاصد الكبرى للسورة، نحو التنويه بفضل القرآن وهديه، ووعيد المشركين، وذكر دلائل الوحدانية والبعث والجزاء.

وتبين أن النظر الأسلوبي في النسيج اللغوي (الصرفي والنحوي والبلاغي) يعتمد على استخدام اصطلاحات لغوية قديمة، كالتعريف والتنكير، والمشتقات، والمغايرة في الصيغ، والحذف، والتأكيد، والتقديم والتأخير، والتشبيه، والاستعارة، والكناية، وما شاكل ذلك.

والمستوى البلاغي، وفيه تجلت خصائص الصورة الفنية في سورة (الحِجر)؛ فاعتمد التعبير القرآني على التصوير بالتشبيه، والاستعارة، والكناية، والحوار، والتخييل الحسي، والصور البصرية، والتصوير في مشاهد القيامة. ثم تبين نسيج المعاني الداخلية للسورة.

وختاما، فأستعيذ بالله من أن أشرك به شيئا أعلمه، وأستغفره لما لا أعلمه، وأسأله سبحانه أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وأصحابه والتابعين، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر.

- القرآن الكريم.

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد الجزري(ت ٦٣٧هـ /١٢٤٩م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (تحقيق كامل محمد عويضة)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

- الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد(ت ٥٠٣ هـ - ١١١٥م)، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، (ضبطه وصححه إبراهيم شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب(ت٤٠٣هـ /١٠١٥م)، **إعجاز القرآن**، (تحقيق السيد أحمد صقر)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٤.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ - ٨٦٨م)، **صحيح البخاري**، ط١، (ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي)، دار الهيثم، القاهرة، ٢٠٠٤.

- البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد(ت ٦٩١هـ/ ١٣٠٣م)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (تقديم محمد المرعشلي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت ٢٥٥هـ/ ٩٧٧م)، **البيان والتبيين**، (تحقيق درويش جويدي)، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠٠٣.

ـــــ **الحيوان**، ط٣، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩.

- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١ هـ/ ١٠٨٣م أو ٤٧٤ هـ/ ١٠٨٨م)، **دلائل الإعجاز**،ط٥، (قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤.

أسرار البلاغة، ط١، (قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر)، مطبعة المدني ، القاهرة، ١٩٩١.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني(ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠٤م)، **الخصائص**، ط٤، (تحقيق محمد علي النجار)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠.

ـــــ **سر صناعة الإعراب**، ط١،(تحقيق مصطفى السقا وآخرون)، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، ١٩٥٤.

ـــــــــ **المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني**، ط١، (تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين)، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤.

ـــــــــ **اللمع في العربية**، (تحقيق فائز فارس)، دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٢.

ـ أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٥٤هـ / ١٣٣٣م)، **تفسير البحر المحيط**، (طبعة جديدة بعناية الشيخ زهير جعيد)، دار الفكر، بيروت.

ـ ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد(ت ٣٧٠هـ/٩٨٢م)، **الحجة في القراءات السبع**، (تحقيق عبد العال سالم مكرم)، دار الشروق، بيروت، ١٩٧١.

ـ الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٦م)، **درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز**، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣.

ـ الرازي، فخر الدين محمد بن عمر(ت٦٠٦هـ ـ ١٢١٨م)، **التفسير الكبير**، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ـ الرماني، أبو الحسن علي بن علي(ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م)، والخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم(ت ٣٨٨هـ / ١٠٠٠م)، والجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن(ت ٤٧١هـ / ١٠٨٣)، **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، ط٢، (تحقيق وتعليق: محمد خلف الله و الدكتور محمد زغلول سلام)، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨، مجموعة ذخائر العرب(١٦).

ـ الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ /١٤٠٦م)، **البرهان في علوم القرآن**، ط٢، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢.

ـ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(ت ٥٣٨هـ/١١٥٠م)، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط١، (تحقيق عبد الرزاق المهدي)،دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٩٧.

ـ أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت ٩٨٢هـ /١٥٩٤م)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (تحقيق عبد القادر أحمد عطا)، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٩٧١.

ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت٩١١هـ/ ١٥٢٣م)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ط١، (تحقيق فؤاد علي منصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

ـــــ الإتقان في علوم القرآن، (تحقيق محمد أبو الفضل)، ط٣، دار التراث، القاهرة.

ـ الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى(ت ٧٩٠هـ / ١٠٤٢م)، **الموافقات في أصول الأحكام**، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٩.

ـ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٥هـ/ ١٨٦٧م)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**،دار المعرفة، بيروت.

ـ شيخ زاده، محيي الدين محمد بن مصطفى القوجوي(ت ٦٨٥هـ/ ١٢٩٧م)، حاشية **محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي**، (ضبطه وصححه محمد عبد القادر شاهين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩.

ـ ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي(ت ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤م)، **عيار الشعر**، (تحقيق : طه الحاجري ومحمد زغلول سلام)، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦.

ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ط١، (هذبه وقربه الدكتور صلاح الخالدي)، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، ١٩٩٧.

ـ ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي(ت بعد ٨٨٠هـ/١٤٩٢م)، **اللباب في علوم الكتاب**، ط١، (تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

ـ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل(ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٧م)، **الصناعتين الكتابة والشعر**،ط١، (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم) دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٥٢.

ــــــــــ **الفروق اللغوية**، ط٤، (تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

ـ ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله العقيلي الهمداني(ت ٧٦٩هـ/١٣٨١م)، **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ومعه (كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل لمحمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت، ٢٠٠٠.

ـ العكبري، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين(ت٦١٦هـ/ ١١٩٥م)، **اللباب في علل البناء والإعراب**، ط١، (تحقيق غازي طليمات)، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٥.

ـ العلوي، المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن علي(ت٧٥٤هـ/١٣٦٦م)، **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، دار الكتب الخديوية، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤.

ـ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ /١٠٠٧م)، **معجم مقاييس اللغة**، (تحقيق عبد السلام هارون)، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٩٠.

ـ الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد(ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، **معاني القرآن**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.

ـ الفيروزأبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت ٨١٧ هـ/١٤٢٩م)، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، (تحقيق محمد علي النجار)، المكتبة العلمية، بيروت.

ـ القرطاجنّي، حازم (ت٦٨٤هـ / ١٢٦٣م)، **مناهج البلغاء وسراج الأدباء**، (تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة)، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦.

ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ/ ١٢٨٣م)، **الجامع لأحكام القرآن**، (قدم له الشيخ خليل محيي الدين الميس) دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥.

ـ القزويني، جمال الدين محمد بن عبد الرحمن(ت ٧٣٩هـ/ ١٣٥٧)، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ط٣، (شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.

ـ القيسي، مكي بن أبي طالب،(ت ٤٣٧هـ/١٠٤٩م)، **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، ط٣،(تحقيق أحمد حسن فرحات)، دار عمار، عمان، ١٩٩٦.

ـ ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل(ت ٧٧٤هـ /١٣٨٦م)، **تفسير القرآن العظيم**، ط١، (قدم له عبد القادر الأرناؤوط)، دار الفيحاء ـ دمشق، دار السلام ـ الرياض.

ـــــــــــــ **السيرة النبوية**، (تحقيق مصطفى عبد الواحد)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ـ الكرماني، محمود بن حمزة (ت ٥٠٥هـ / ١١١٧م)، **أسرار التكرار في القرآن**، ط٢، (تحقيق أحمد عبد القادر عطا)، دار الاعتصام، ١٩٧٦.

ـ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم(ت٧١٠هـ/ ١٣٢٢م)، **لسان العرب**، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧.

ـ ابن منير، ناصر الدين أحمد بن محمد (ت٦٣٨هـ/ ١١٥٠م)، **الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال**، حاشية على الكشاف للزمخشري، ط١، (تحقيق عبد الرزاق المهدي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧.

ـ النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن إسماعيل(ت ٣٣٨ هـ /٩٥٠م)، **معاني القرآن**، ط١، (تحقيق محمد علي الصابوني)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٧٨.

ـ ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن جمال الدين(ت ٧٦١هـ / ١٣٧٣م)، **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، ط١، (تحقيق ح. الفاخوري)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩.

ـ ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي(٦٤٣هـ /١٢٥٥م)، **شرح المفصل للزمخشري**، إدارة الطباعة المنيرية، مصر.

ثانيا: المراجع.

ـ استيتيه، سمير شريف، **منازل الرؤيا منهج تكاملي في قراءة النص** ، ط١، دار وائل، عمان، ٢٠٠٠.

ـ أبو أصبع، صالح، **الحركة الشعرية في فلسطين المحتلّة**، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩.

ـ الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي(١٢٧٠هـ/ ١٧٨٢م)، **روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ـ أنيس، إبراهيم، **دلالة الألفاظ**، ط٧، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٢.

ــــــــــ **في اللهجات العربية**، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.

ــــــــــ **موسيقى الشعر**، ط٤، دار القلم، بيروت، ١٩٧٢.

ــــ **من أسرار اللغة**، ط٧، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٧.

ــــ **الأصوات اللغوية**، ط٣، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦١.

ـ أولمان، ستيفن، **دور الكلمة في اللغة**، ط٢(ترجمه وقدم له وعلق عليه: كمال بشر)، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.

ـ بالمر، ف، **علم الدلالة**، (ترجمة عبد الحليم الماشطة)، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، ١٩٨٥.

ـ بدوي، أحمد أحمد، **من بلاغة القرآن**، ط٣، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٠.

ـ بركة، بسام، **علم الأصوات العام أصوات اللغة العربية**، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٨.

ـ البطل، علي، **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**، ط١، دار الأندلس ، بيروت، ١٩٨٠.

ـ البكوش، الطيب، **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، ط٢، (تقديم صالح القرمادي)، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨٧.

ـ بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية**، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.

ـ البوطي، محمد سعيد رمضان، **من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل**، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦.

ـ تليمة، عبد المنعم، **مدخل إلى علم الجمال الأدبي**، عيون المقالات، ط٢، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧.

ـ الجارم، علي، وأمين، مصطفى، **البلاغة الواضحة**، ط١، دار النعمان، دمشق، ١٩٩٧.

ـ جويو، جان ماري، **مسائل فلسفة الفن المعاصر**، ط١،(ترجمة : سامي الدروبي)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٤.

ـ حامد، أحمد حسن، **دراسات في أسرار اللغة**، ط١، مكتبة النجاح الحديثة، نابلس، ١٩٨٤.

ـ حسان، تمام، **مناهج البحث في اللغة**، مكتبة الأنجلو المصرية ومطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٥.

ــــ **اللغة العربية معناها ومبناها**، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥.

ـ حسن، عباس، **النحو الوافي**، ط٤، دار المعارف، القاهرة.

ـ الحمداني، فالح أحمد، **الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف**، ط١، مؤسسة الوراق، عمان، ٢٠٠١.

ـ الحمصي، نعيم، **فكرة إعجاز القرآن**، ط٢، (تقديم محمد بهجة البيطار)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠.

ـ الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **مفاتيح للتعامل مع القرآن**، ط٤، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٥.

ـــــــــــــ **البيان في إعجاز القرآن**، دار عمار ـ عمان.

ـ خان، محمد، **اللهجات العربية والقراءات القرآنية دراسة في البحر المحيط**، ط٢، دار الفجر، المغرب، ٢٠٠٢.

ـ الخضري، محمد الأمين، **من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم**، مكتبة وهبي، القاهرة، ١٩٨٩.

ـ خلف الله، محمد أحمد، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥.

ـ خليل، إبراهيم، **الضفيرة واللهب**، أمانة عمان، عمان، ٢٠٠٠.

ـــــ **في النقد والنقد الألسني**، أمانة عمان الكبرى، عمان، ٢٠٠٢.

ـــــ **في اللسانيات ونحو النص**، ط١، دار المسيرة، عمان، ٢٠٠٧.

ـــــ **النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك**، ط١، دار المسيرة، عمان، ٢٠٠٣.

ـــــــــــــ **النص الأدبي تحليله وبناؤه**، دار الكرمل، عمان، ١٩٩٤.

ـ دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤.

ـ الدرويش، محيي الدين، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، ط ٩، اليمامة، دمشق ـ بيروت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ، ٢٠٠٣.

ـ الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ط١، (تحقيق عبد الله المنشاوي)، مكتبة الإيمان، مصر، ١٩٩٧.

ـ الرباعي، عبد القادر، **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، ط٢، عمان، دار الفارس، ١٩٩٩.

ـ أبو زهرة، محمد، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠.

ـ السعران، محمود، **علم اللغة العام مقدمة للقارئ العربي**، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ السلطان، منير، **بلاغة الكلمة والجملة والجمل**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٨.

ـ سلوم، تامر، **نظرية اللغة والجمال في النقد العربي**، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٣.

ـ الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، (خرج أحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

ـ الصابوني، محمد علي، **صفوة التفاسير**، ط٩، دار الصابوني، القاهرة.

ـ الصالح، صبحي، **دراسات في فقه اللغة**، ط٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١.

ـ طحان، ريمون، **الألسنية العربية**، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢.

ـ ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧.

ـ عامر، فتحي أحمد، **فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥.

ـــــــــــــــــ **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥.

ـ عباس، فضل حسن، **البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع**، ط٧، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٠.

ـــــــــــــــــ **البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني**، ط١٠، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٥.

ـ عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١.

ـ عبد الجليل، عبد القادر، **هندسة المقاطع الصوتية**، ط١،دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٨.

ـ عصفور، جابر، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، ط٣، المركز الثقافي العربي ، بيروت، ١٩٩٢.

ـ العقاد، عباس محمود، **أشتات مجتمعات في اللغة والأدب**، ط٦، دار المعارف، مصر.

ـ أبو علي، محمد بركات، **في الأدب والبيان**، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤.

ـ عمر، أحمد مختار، **الصوت اللغوي**، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٦.

ـ عياد، شكري، **موسيقى الشعر العربي**، ط٢، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٧٨.

ـ فضل، صلاح، **علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته**، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢.

ــــــ **بلاغة الخطاب وعلم النص** ، سلسلة عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، العدد ١٦٤، أغسطس١٩٩٢.

ـ القط، عبد القادر، **الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨.

ـ قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، ط٢٢، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٩٤.

ـــــ **التصوير الفني في القرآن**، ط٨، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣.

ـــــــــــ **مشاهد القيامة في القرآن**، دار المعارف، مصر، ١٩٦١.

ـ قوقزة، نواف، **نظرية التشكيل الاستعاري في البلاغة والنقد**، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٢.

ـ كشك، أحمد، **من وظائف الصوت اللغوي**، ط٣، مطبعة المدينة، دار السلام، ١٩٨٣.

ـ لاشين، عبد الفتاح، **البيان في ضوء أساليب القرآن**، ط١، دار المعارف، مصر، ١٩٨٤.

ـ المبارك، محمد، **فقه اللغة وخصائص العربية**، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٨.

ـ محيي الدين، رمضان، **وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن**، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٢.

ـ المخزومي، مهدي، **في النحو العربي نقد وتوجيه**، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.

ـ المرسي، كمال الدين عبد الغني، **فواصل الآيات القرآنية**، ط١، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩.

ـ المسدي، عبد السلام، **النقد والحقيقة**، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣.

ـــــــــــــ **الأسلوبية والأسلوب**، ط٢، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٢.

ـ معبد، محمد أحمد، **الملخص المفيد في علم التجويد**، ط٧، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٩٥.

ـ مفتاح، محمد ، **دينامية النص تنظير وإنجاز**، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، الدار البيضاء ـ المغرب، ١٩٨٧.

ـ أبو موسى، محمد، **خصائص التركيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٠.

ـ نحلة، محمود أحمد، **دراسات قرآنية في جزء عم**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨.

ثالثا: الدوريات.

ـ بشر، كمال محمد، **مفهوم علم الصرف**، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، العدد ٢٥، ١٩٦٩.

ـ الرباعي، عبد القادر، **الصورة في النقد الأوروبي**، مجلّة المعرفة، العدد ٢٠٤، ١٩٧٩.

ـ عبد القادر، حامد، **معاني الماضي والمضارع في القرآن الكريم**، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، العدد ١٠٢، ١٩٥٨.

ـ أبو عودة، عودة، **البيان القرآني: مفهومه ووسائله**، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٥٦، ٢٠٠٩.